تاريخ اليهود

منذ أقدم العصور حتى نهاية العصر اليوناني



دكتور

أحمد محمود هويدى

أستاذ الدراسات اليهودية

كلية الآداب - جامعة القاهرة

دار الثقافة العربية

تـــاريخ اليهـــود

منذ أقدم العصور حتى نهاية العصر اليونانى

دكتور

أحمـــد محمـــود هويـــدى

أســـتاذ الـــدراسات اليـــهودية

كلية الآداب ـــ جامعة القاهرة

دار الثقافة العربية

الفصل الأول

غرض الرواية التاريخية

فى العهد القديم وفلسفتها

أولا ـــ مناهج كتابة التاريخ

يقسم هيجل المناهج التاريخية ثلاثة أقسام هي: التاريخ الأصلي، والتاريخ النظرى والتاريخ الفلسفي[1] .ويقصد بالتاريخ الأصلى التاريخ الحاضر، أى التاريخ الذى يرويه شاهد عيان شاهد الأحداث بنفسه وكان معاصرا لها، ويعتمد كذلك على آراء المعاصرين للأحداث. أما التاريخ النظرى فيقصد به أن مؤلفا أو مؤرخا يروى أحداثا قد حدثت منذ فترة ولم يكن معاصرا لها. لكنه قرأ عنها ثم بلور قراءته ويعيدها فى صورة مكتوبة أقرب إلى عقل العصر الذى يعيش فيه، بمعنى أنه يكتب الماضى من منظور العصر الدى يعيش فبه. لذلك يوجد فرق جوهرى بين التاريخ الأصلى والتاريخ النظرى. فالمؤرخ للتاريخ الأصلى يفترض أنه يسرد الأحداث والأعمال ويسجلها كما شاهدها وعايشها دون أن يتدخل فى السرد بالزيادة أو الحذف، لكن يمكنه أن يعكس فى الوقت نفسه فكر عصره. ومن أهم ما يميز التاريخ الأصلى أن المؤرخ هنا يستبعد الأساطير وكل ما يرتبط بها من تراث شعبى أو أقاصيص شعرية بعيدة عن الواقع، كما أن الخيال لا يلعب أى دور فى التاريخ الأصلى، حيث إنه تاريخ واقعى عايشه المؤرخ، وبالتالى فلا حاجة للخيال. أما المؤرخ للتاريخ النظرى فإنه يبلور قراءاته عن الفترة التى يؤرخ لها ويصفها ويصبغها بروح العصر الذى يعيش فيه ، أى أنه يقدم رؤية تحليلية للمادة التاريخية التى حصل عليها من خلال قراءاته ، كما أن المؤرخ للتاريخ النظرى

يتجاوز روح عصر الذى يكتب عنه ويلعب الخيال عنده دورا إلى حد كبير . أما المنهج الثالث من مناهج دراسة التاريخ فهو التاريخ الفلسفى، وهذا المنهج يختلف عن منهج التاريخ الأصلى ومنهج التاريخ النظرى. يعود ذلك الاختلاف إلى أنه يسود الاعتقاد بأن التاريخ الفلسفى هو نفسه فلسفة التاريخ أو بمعنى آخر يقصد بالتاريخ الفلسفى تفسير الأحداث التاريخية. وإذا اعتبرنا أن التاريخ الفلسفى وفلسفة التاريخ شيء واحد فإن ذلك لا يعنى سوى التحليل النقدى للتاريخ كما ذهب إلى ذلك فولتير فى القرن الثامن عشر، أو أنها دراسة التاريخ من خلال الفكر كما اعتقد هيجل[٢].ويمكن أن نوفق بين الرؤيتين فنقول إن المقصود بفلسفة التاريخ تحليل نقدى للتاريخ والفكر معا مع ضرورة أن يتوافق ذلك مع العقل والحقائق بهدف الوصول إلى التاريخ الواقعى.

والمؤرخ للتاريخ القديم ــ أيا كان هذا التاريخ سواء أكان هذا التاريخ ورد لنا من خلال مادة مكتوبة على النقوش أو مادة مدونة فى وثائق وسجلات ــ يتبع حتما المنهج النظرى والمنهج الفلسفى فى دراسته . ففى حالة تاريخ إسرائيل القديم ــ والذى عرف فيما بعد باسم التاريخ اليهودى ــ يعتبر المنهج النظرى والمنهج الفلسفى ضروريا لدراسة هذا التاريخ، سواء ما تم الإشارة إليه فى أسفار العهد القديم، أو ما دونه المؤرخون اليونان وغيرهم من المؤرخين اليهود القدماء مثل يوسيفوس فلافيوس. فالمنهج النظرى ضرورى لأن بداية أحداث تاريخ بنى إسرائيل تعود إلى الألف الثانى قبل الميلاد والنصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد. ومعرفتنا لتاريخ هذه الفترة وصلنا عن طريق مصادر يهودية دينية وعلى رأسها العهد القديم كتاب اليهود المقدس. فصار من الضرورى على المؤرخ المتأخر إعادة النظر فى هذه المادة التاريخية خاصة أن هذه المادة التاريخية ليست مادة أصلية، أى أنها لا تخضع للتاريخ الأصلى لأن تدوينها حدث بعد فترات طويلة نسبيا من حدوثها، وخضع تدوينها لرؤى كتابها والعصور التى عاشوا فيها.

لذلك يجب قراءة هذا التاريخ قراءة جديدة وإعادة تدوينه وكتابته فى ضوء الاكتشافات الأثرية التى تم العثور عليها فى العصر الحديث، وأن يهتم بهذا الموضوع علماء يتسمون بالموضوعية وينظرون إلى أحداث الماضى نظرة علمية موضوعية بعيدا عن الرؤى الموروثة والتى صار لها نوع من القداسة. وهذا المنهج يؤدى حتما إلى اتباع المنهج الفلسفى لأن أحداث تاريخ بنى إسرائيل أوجد لكل حادثة تاريخية تفسيرا دينيا، بل إنه من الصعب الفصل بين الحادثة التاريخية ومغزاها الدينى. والأمثلة على ذلك كثيرة فى تاريخ بنى إسرائيل مثل حادثة الخروج من مصر بقيادة موسى، أو حادثة تأسيس الملكية ، أو أحداث خضوع مملكة إسرائيل للسيادة الأشورية ، أو خضوع مملكة يهوذا للسيادة البابلية .

فكل هذه الأحداث رغم وجود أسباب سياسية وتاريخية واقتصادية واجتماعية لحدوثها إلا أن المؤرخ الإسرائيلى القديم والمؤرخ اليهودى فيما بعد لم يهتم مطلقا بتلك الأسباب التى أدت إلى حدوثها بل تم أعطاء كل حادثة منها بُعدا دينيا. أدى ذلك الفهم إلى ظهور فلسفة عامة للتاريخ اليهودى القديم وهى فلسفة دينية أو تفسير دينى للأحداث حيث ساد الاعتقاد بأن تاريخهم تاريخ مقدس يسير وفقا لأحكام الإرادة الإلهية[٣]. ومما لاشك فيه أن هذا التفسير لا يزال سائدا حتى الآن بين كثير من المؤرخين اليهود وغيرهم لعدم وجود مصادر غير يهودية للتأريخ لهذه الفترة التاريخية، بل إن معظم تاريخ الجماعات اليهودية كتب من قبل يهود، وأصبح من الصعب على المؤرخ اليهودى وغير اليهودى أن يقدم تاريخا علميا موضوعيا لتاريخ اليهود القديم بل والحديث أيضا[٤]. وهنا يجب على صاحب منهج التاريخ الفلسفى (فلسفة التاريخ) إعادة النظر فى هذا الفهم لأحداث التاريخ اليهودى القديم فى ضوء تزايد معرفتنا بتاريخ إمبراطوريات الشرق الأدنى، وفى ضوء تقدم العلوم الاجتماعية والاقتصادية والأنثروبولوجية، بالإضافة إلى الحفريات، وتقديم رؤية نقدية لأحداث التاريخ الإسرائيلى فى عصر العهد القديم وكذلك نقد الأفكار والرؤى التى يقدمها العهد القديم بالنسبة للتاريخ فى عصر

العهد القديم، وكذلك إخضاع الكتابات التاريخية اليهودية الحديثة لمناهج نقد علمية تفصل بين التاريخ اليهودى والديانة اليهودية، وتقديم تاريخ علمانى لليهود منذ أقدم العصور وحتى العصر الحديث. ونقصد بتاريخ علمانى أى تقديم تاريخ اليهود القديم من وجهة نظر علمية، وليس المقصود رؤية مضادة للدين.

ثانيا ـــ مراحل التاريخ اليهودى

إن المتأمل فى تاريخ اليهود يلاحظ أن هذا التاريخ لم يكن تاريخا مستقلا فى أى مرحلة من مراحل التاريخ ، بل ارتبط منذ بداية ظهور بنى إسرائيل وحتى الآن بالأماكن الجغرافية التى وجد فيها اليهود . ويعود ذلك إلى أن التاريخ اليهودى منذ أقدم العصور وحتى الآن تاريخ تجوال وشتات باستثناء فترة الملكية التى اتسمت بالاستقرار نسبيا. حيث وجد صراع مستمر داخل البيت الشاؤولى والداودى والسليمانى، كما وجد صراع بين مملكة الشمال ومملكة الجنوب. لذلك يمكن تقسيم التاريخ اليهودى من بدايته وحتى الآن قسمين رئيسيين :

القسم الأول: يتناول تاريخ اليهود فى ظل حكم الإمبراطوريات العربية القديمة(إمبراطوريات الشرق الأدنى القديم (بابل وأشور). استمرت هذه الفترة منذ أقدم العصور حتى تأسيس الإمبراطورية الفارسية على يد قورش. خلال هذه الفترة عاش اليهود وتجولوا داخل بيئة الشرق الأدنى القديم فى المنطقة الممتدة من الخليج العربى شرقا حتى وادى النيل غربا. ويمكن أيضا أن نطلق على هذه الفترة من تاريخ اليهود اسم الفترة الشرقية الخالصة.

والقسم الثانى: يقدم تاريخ اليهود فى ظل حكم الإمبراطوريات الهندية ــ الأوربية والدول الشرقية. تمتد هذه المرحلة منذ تأسيس قورش الإمبراطورية الفارسية حتى العصر الحديث والمعاصر حيث عاش اليهود فى ظل الحكم الفارسى ثم اليونان بعد قدوم الأسكندر الأكبر إلى بلاد الشرق الأدنى. وانتقل بعضهم إلى

مواطن أخرى تابعة لهاتين الإمبراطوريتين. وعندما ظهر الإسلام خضع يهود الشرق لحكم المسلمين فى حين أن اليهود الذين هاجروا إلى أوربا عاشوا تحت حكم البلدان الغربية، ويمكن أن نطلق على هذه الفترة اسم الفترة الغربية الشرقية.

وقد نتج عن هذا أننا لا نستطيع الحديث عن تاريخ يهودى عام بل عن تاريخ جماعات يهودية، حيث قامت كل جماعة بتكييف يهودية حياتها السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية طبقا للبيئة والظروف التى تعيش فيها كل جماعة.

ويمكن أن نميز فى كل مرحلة من مرحلتى التاريخ اليهودى العام بين عدد من العصور، فمرحلة التاريخ اليهودى فى ظل حكم إمبراطوريات الشرق الأدنى القديم، أو ما يمكن تسميته بالمرحلة الشرقية الخالصة فى تاريخ اليهود تمتد منذ عصر الآباء ثم ظهور بنى إسرائيل على مسرح التاريخ وحتى تأسيس الملكية واستمرت حتى خضوع يهوذا للسيادة البابلية ٥٨٦ ق.م .وتشمل هذه الفترة التاريخية عدد من المراحل التاريخية هى:

١ ــ مرحلة الآباء

٢ ــ مرحلة وجود بنى إسرائيل فى مصر

٣ــ مرحلة خروج بنى إسرائيل من مصر

٤ ــ مرحلة دخول بنى إسرائيل أرض كنعان والاستيلاء عليها.

٥ ــ مرحلة تأسيس الملكية وتطورها (من شاؤول حتى سليمان)

٦ ــ انقسام مملكة (داوود وسليمان) إلى مملكة شمالية وأخرى جنوبية، وتأرجح المملكتين بين إمبراطوريات الشرق الأدنى القديم(أشور وبابل ومصر)، حتى تم خضوع إسرائيل للسيادة الأشورية٧٢١ ق.م ، ويهوذا للسيادة البابلية ٥٨٦ ق.م .

تجدر الإشارة إلى أن هذه المراحل تعبر عن رؤية العهد القديم لتاريخ اليهود القديم، الذى حاول كتابه طمس بقية تاريخ شعوب فلسطين الأصليين والتركيز على تاريخ إسرائيل القديمة، ونحن إذ نعرض لهذه الفترة التاريخية نعرضها وفقا لهذا الفهم، موضحين أبرز نقاط الضعف فى فهم هذه الرؤية التوراتية. وقد ظهرت فى الغرب العديد من الأبحاث التى تحاول نقد هذه الرؤية التوراتية ، ومن أبرز الكتابات فى هذا المجال ،كتابات ويت كيتلام وتوماس طومسون.

والمرحلة الثانية من مراحل التاريخ اليهودى، هى تلك المرحلة التىتمت تحت السيادة الهندية ـ أوربية ثم تحت حكم الدول الإسلامية. وفى هذه المرحلة يمكن التمييز بين العديد من المراحل، وتحدد مراحل هذه الفترة طبقا لظهور الإمبراطوريات الشرقية أو الغربية أو ظهور الدول الإسلامية، أو يمكن أن نميز بينها مكانيا بمعنى الحديث عن تاريخ اليهود فى كل أقليم جغرافى وهكذا. ومن أبرز مراحل هذه الفترة :

١ـ اليهود فى العصر الفارسى .

٢ ـ اليهود تحت السيادة اليونانية .

٣ـ اليهود تحت السيادة الرومانية .

٤ ـ اليهود فى ظل الحكم الإسلامى(منذ ظهور الإسلام حتى سقوط الدولة العثمانية).

٥ ـ اليهود فى البلدان الأوربية منذ بداية العصر الوسيط حتى نهايته

٦ ـ اليهود فى العصر الحديث.

ثالثا ـ مصادر دراسة التاريخ اليهودى القديم.

إن المشكلة الرئيسة التى تواجهنا عند التأريخ لليهود فى العصور القديمة على وجه الخصوص تكمن فى مصادر هذه الفترة، فرغم وجود مادة مكتوبة ممثلة فى العهد القديم، فإن هذه المادة يدور حولها الكثير من الشكوك. يتمثل أول هذه

الشكوك فى أن المادة المكتوبة ليست مادة أصلية ، بل هى تبلور نهائى لمادة شفوية ومادة أخرى قد تكون مكتوبة فى الأصل لكنها لم تصل إلينا ، تعرف هذه المادة التى لم تصلنا باسم الأسفار المفقودة مثل سفر حروب الرب وسفر المستقيم وأخبار الأيام لملوك يهوذا وأخبار الأيام لملوك إسرائيل ... ألخ. ثانى هذه الشكوك يتمثل فى أن هذه المادة التاريخية معروضة فى نطاق كتاب دينى هدفه الأساسى التشريعات والأحكام والمواعظ الأخلاقية وليس السرد التاريخى ، غير أن مدونى هذه النصوص عكسوا قيمة هذا الكتاب وأعطوه قيمة تاريخية تكاد تكون معادلة بل ومساوية للمادة الدينية . أما ثالث هذه الشكوك وهو الأخطر أنه ليس لدينا أى آثار تؤكد صحة وصدق كثير من المعلومات التاريخية التى يعرضها لنا المصدر الوحيد لهذه الفترة وخاصة فيما يتعلق بالتاريخ الأولى لهذه الجماعة ونقصد بذلك الفترة التاريخية قبل تأسيس الملكية حيث لا توجد لدينا أى إشارات فى الآثار التى تم العثور عليها حتى الآن ، بل إن الهيكل المزعوم لم يتم اكتشافه حتى الآن . وهذا يؤدى إلى وجود مشكلة حقيقية خاصة عندما يرتبط الأمر بشخصيات مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى فهناك من يرى أن صورة هذه الشخصيات كما تعرضها نصوص العهد القديم روايات تاريخية حقيقية ومن أنصار هذا الرأى جل علماء اللاهوت وغيرهم مثل أولبرايت وكويفمان [5]، وأخرون يقللون من قيمة هذه المادة التاريخية بل ذهب البعض أكثر من ذلك وادعى أسطورية هذه الروايات ومن أنصار هذه المدرسة جونكل وأصحاب مدرسة النقد الشكلى[6]، ويرى فريق آخر أن هذه الروايات وغيرها مما يسرد تاريخ إسرائيل حتى عصر القضاة يعد نوعا من الروايات المختلقة ومن أنصار ذلك ألبرخت آلت ومارتن نوت[7].

لذلك يجب علينا عند الحديث عن شخصيات مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى أن نميز بين ما تعرضه التوراة خصوصا والتراث اليهودى عموما وكذلك التراث المسيحى ، وبين ما يقدمه القرآن الكريم عن هذه الشخصيات .

فصورة هذه الشخصيات فى التوراة هى صورة عكسها الكتاب المتأخرون للتوراة اعتمادا على مادة تراثية شفوية قديمة، هذه المادة التراثية الشفوية القديمة تعرضت للتغيير بالزيادة أو النقصان[٨]، أو بمعنى آخر أن هؤلاء الكتاب المتأخرون دمجوا ما هو حقيقى عن هذه الشخصيات بما هو شعبى فلكورى[٩]، فكان نتيجة ذلك تشويه الصورة الحقيقية لتلك الشخصيات . وهذا يعنى أن المادة الأصلية عن هذه الشخصيات كانت مادة موجزة مختصرة هدفها الأساسى الإشارة إلى أن هذه الشخصيات كان لها دور دينى ، لكنها تحولت بمرور الزمن بسبب الروايات الشعبية إلى شخصيات لها دور سياسى يفوق الدور الدينى . ويبدو لنا أن الهدف من ذلك هو الربط بين هذه الشخصيات وتاريخ إسرائيل والتدليل على وجود أصل إلهى لتاريخ إسرائيل القديم[١٠] . لذلك فإننا نعرض تاريخ هذه الشخصيات طبقا للصورة الأخيرة التى وصلتنا من خلال روايات التوراة .

وكما توجد بعض الشكوك حول نوعية مصادر تاريخ اليهود فى عصر العهد القديم، توجد أيضا مشاكل مرتبطة بالتأريخ لليهود فى عصر الإمبراطوريات الغربية والبلدان الشرقية. ومن أهم هذه القضايا الاهمال شبه التام لتاريخ الجماعات اليهودية التى عاشت فى الغرب والشرق من قبل مؤرخى هذه البلدان ويعود ذلك إلى العزلة التى كانت تعيشها الجماعات اليهودية بسبب القيود التى كانت تفرضها بعض الدول على اليهود، بالإضافة إلى طبيعة الديانة اليهودية التى هى ديانة قومية فى المقام الأول؛ وبالتالى لم تتح الفرصة لليهود الاندماج فى المجتمعات التى عاشوا فيها. ومن القضايا التى تواجه المؤرخ لهذه الفترة التاريخية تعدد اللغات التى دون بها تاريخ الجماعات اليهودية خلال هذه الفترة التاريخية، علاوة على أن اليهود أنفسهم ابتدعوا لأنفسهم أنماطا مختلفة من الكتابة لا يعرفها غيرهم مثل الكتابة العربية ـ اليهودية، والفارسية ـ اليهودية، والألمانية ـ اليهودية ....، أى أنهم كانوا يكتبون بلغات البلدان التى يعيشون فيها، لكنهم يدونون هذا النمط من الكتابة بالخط العبرى. وقد ابتدعوا لأنفسهم أيضا لهجات خاصة بهم دونوا بها

بعضا من تراثهم، مثل لهجة اللادينو التى هى خليط من العبرية والإسبانية، ولهجة اليديش، وهى خليط من العبرية والألمانية. وبالتالى صار من الصعب بل من المستحيل على غير اليهودى بصفة عامة، وكثير من اليهود بصفة خاصة، تقديم عرض علمى موضوعى لتاريخ اليهود فى أى عصر من العصور التاريخية.

رابعا ـ اتجاهات كتابة تاريخ إسرائيل القديم لدى المؤرخين اليهود

إذا نظرنا إلى تاريخ بنى إسرائيل نجد تعدد رؤى المؤرخين اليهود الذين يؤرخون لتاريخ بنى إسرائيل فى عصر العهد القديم.فكانت الرؤية السائدة على التأريخ هى الرؤية الدينية والتسليم ببديهية الرواية التوراتية ، وأنها رواية تاريخية حقيقية ، واستمرت هذه الرؤية مسيطرة على مؤرخى تاريخ بنى إسرائيل فى عصر العهد القديم منذ العصور القديمة وحتى أواخر القرن التاسع عشر .

تغيرت هذه الرؤية اللاهوتية منذ أواخر القرن التاسع عشر، ولم تعد مقبولة لدى كثير من الدوائر الأكاديمية بل واللاهوتية أيضا، وذلك فى أثر تزايد الاكتشافات الأثرية وتقدم نقد العهد القديم، وظهور مناهج علمية جديدة فى مجال الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية بل والدينية حيث بدأ تحول فى التأريخ لإسرائيل فى عصر العهد القديم، خاصة مع فلهاوزن ومدرسته. اكتشف فلهاوزن فرضية الوثائق، موضحا أن التوراة فى صورتها الحالية مكونة من أربعة وثائق أدبية (اليهوية والإلوهيمية والتثنوية والكهنوتية)، وأنها دونت فى فترات تاريخية متباعدة، وأنها تعكس وجهة نظر مؤلفيها والعصور التى عاشوا فيها. وبما أنها وثائق أدبية فلا يمكن الحصول منها على أى شئ تاريخى يعتمد عليه عن المراحل القديمة لتاريخ بنى إسرائيل فى عصر العهد القديم. وتنبع هذه الرؤية طبقا لرأى فلهاوزن من أن تاريخ الشعب يبدأ من لحظة استقرار الشعب وليس قبل ذلك. وقد أدى

ذلك بطبيعة الحال إلى التفسير النقدى الذى ساد فى كل الأسفار التاريخية فى العهد القديم[11].

تطور ذلك فيما بعد وصارت نظرية الوثائق الأدبية هذه من البديهيات، وانتقلت الدراسات التاريخية النقدية المرتبطة بالعهد القديم إلى اتجاه بعيد عن التفكير اللاهوتى الذى كان سائدا، وأعطى تلك الدراسات النقدية طابعا تاريخيا علمانيا بعيدا كل البعد عن الرؤى اللاهوتية القديمة. وطور هذه الرؤية مايرز وفينكلر وجريسمان، فمايرز أشار إلى أن الوثائق كانت فى الأصل روايات شفوية، وأن روايات سفر التكوين فيها القليل مما له علاقة بالتاريخ. ورأى فينكلر صاحب البحث الشمولى أن أدب العهد القديم انعكاس للأدب السومرى، تلك الرؤية عارضها بشدة ماير. وسار هيرمان جونكل فى الاتجاه الذى بدأه ماير لكنه أضاف بعدا جديدا رغم أنه من أهم باحثى الأشكال الأدبية فى العهد القديم، حيث حاول فهم تاريخ إسرائيل فى عصر العهد القديم فى ضوء التاريخ العالمى والدراسات المقارنة ولم يكتف بالنقد الأدبى. أما جيرسمان فيعود له الفضل فى انتشار مجموعة من الباحثين تعرف باسم مدرسة تاريخ الأديان. وما يميز عمل هذه المجموعة التى أسسها جيرسمان سواء فى أوربا أو فى أمريكا اهتمامها الشديد بالمكتشفات الأثرية والنصوص المترجمة عن الشرق العربى القديم. وكان لهذه المكتشفات الفضل فى التوصل إلى فهم جديد لتاريخ إسرائيل القديم بعيدا عن الرؤية اللاهوتية التى سادت الدراسات الليبرالية والبروتستانتينية[12].

ولاشك فى أن أصحاب مدرسة تاريخ الأديان بعملهم هذا أضعفوا تأثير نظرية الفرضية الوثائقية وأكدوا أن الوثائق التى استخلصت منها الحكايات التوراتية تجد أصلها فى أدب شعبى قديم سابق على تاريخ تأليفها . وبجهود أوتو أيسفلت حول دور فرضية الوثائق فى شكل النقد ، ودورها فى إعادة بناء تاريخ إسرائيل القديم ، أى أن نقد الشكل والمصادر كانت إجراءات متكاملة عمليا ،

فلا يوجد اختلاف أو تناقض بين نقد الشكل والمصادر ، بل ألفا جهدا مشتركا فى مجال التأويل النقدى . وبذلك استطاع أيسفلت المحافظة على القيمة التاريخية للمرويات القديمة وكان ذلك بداية الابتعاد عن التفسير الدينى واللاهوتى السائد، بل والتحرر منه والاهتمام بالمكتشفات الأثرية ونصوص الشرق الأدنى القديم التى تم اكتشافها[١٣].

وظهر على أثر ذلك اتجاه يحاول التوفيق بين الرؤية التاريخية الدينية السائدة فى العهد القديم وبين المرويات والاكتشافات الأثرية ومن أنصار هذا الاتجاه ألبرخت ألت فى ألمانيا ووليم فولف ألبرايت فى أمريكا غير أن هذه الرؤية رغم وجود أنصار لها دخلت مرحلة الانهيار. لأن أصحاب هذه الرؤية يحاولون تطويع المادة الأثرية لتطابق رؤى العهد القديم. ثم ظهر اتجاه آخر فى الكتابات التاريخية هو الاتجاه التفكيكى[١٤]حيث ظهرت العديد من الكتابات النقدية التى ركزت على نقد روايات التوراة، وفى ذات الفترة بدأ التقدم فى العلوم الاجتماعية وظهور مناهج تاريخية جديدة فأثر ذلك على المؤرخين المهتمين بتاريخ إسرائيل فى العصور القديمة، وساعد على ذلك ظهور فرق يهودية جديدة فى الغرب وخاصة اليهودية الإصلاحية. ساعد ذلك على بلورة اتجاهات جديدة فى التأريخ لإسرائيل فى عصر العهد القديم كما فى عمل دوفنوف وسالو بارون، فالأول أعطى أهمية للتفسير بحكم أنه كان يهوديا اصلاحيا، أما الثانى فعنوان كتابه " التاريخ الاجتماعى والدينى لشعب إسرائيل " يبين المنهج الذى اتبعه فى التأريخ لإسرائيل فى عصر العهد القديم والتاريخ اليهودى فيما بعد، حيث أعطى أهمية للعامل الاجتماعى فى تفسير الأحداث التاريخية، رغم أنه لم يهمل العامل الدينى فى تفسير الأحداث التاريخية لكنه غلب العامل الاجتماعى على العامل الدينى[١٥].

ومع تزايد الاكتشافات الأثرية بدأ نقد المادة التاريخية فى العهد القديم فى ضوء الاكتشافات الأثرية الحديثة كما فى أعمال أبراهام ملمط ومدرسته، غير أن الاتجاه

الأكثر حداثة والذى بدأ فى الربع الأخير من القرن الماضى هو وضع تاريخ إسرائيل فى عصر العهد القديم ، والعصور التالية فى حجمه الطبيعى والبعد عن التهويلات التى أضفاها كتاب العهد القديم على هذا التاريخ وطمس تاريخ شعوب فلسطين القديمة الأخرى مثل الفلسطينيين والأدوميين والعمونيين والمؤابيين، ومن أهم الكتابات فى هذا المجال كتابات وايت كيتلام وتوماس تومسون [١٦].

خامسا ــ غرض الرواية التاريخية فى العهد القديم

العهد القديم كتاب دينى تاريخى يشمل شرائع وطقوس الديانة اليهودية ولكنه بالإضافة إلى ذلك كتاب تاريخى يشمل تاريخ بنى إسرائيل خلال فترة زمنية طويلة ــ من بداية تاريخهم إلى انتهاء السيادة البابلية ــ وقد اختلطت المادة التاريخية بالمادة الدينية فى العهد القديم إلى درجة يصعب الفصل فيما بينهم، وهذا الخلط بين المادة التاريخية والمادة الدينية جعل من الصعب إن لم يكن من العسير كتابة تاريخ يهودى عام ــ على الأقل خلال فترة عصر العهد القديم، إن لم يكن طوال تاريخ اليهود ــ دون التعرض لتاريخ الديانة، حيث ارتبط تاريخ اليهود بتاريخ الديانة، فلا يمكن فهم تاريخ الديانة بدون فهم تاريخ الجماعات اليهودية، كما لا يمكن فهم تاريخ الجماعات اليهودية بدون فهم الديانة.

وتختلف مصادر تاريخ بنى إسرائيل فى عصر العهد القديم عن مصادر تاريخ الأمم التى كانت تعيش فى منطقة الشرق الأدنى القديم. فمصادر تاريخ شعوب هذه المنطقة وصل إلينا على هيئة نقوش ولوحات على جدران المعابد المصرية والبابلية والأشورية والكنعانية والآرامية وغيرها[١٧]، وهى وثائق تاريخية تهتم بأسماء الملوك وأنسابهم وكذلك توجد إشارات إلى بعض أعمالهم، ومهما يكن من أمر تلك النقوش واللوحات فإنها لا تعطى معلومات تاريخية كافية حيث لم ترد لنا متسلسلة، كما أن بعضها قد أصابه التلف، لكنها تقدم لنا الدليل المادى لمساهمة

ملوك هذه الشعوب فى تاريخ الشرق العربى القديم وحضاراته. أما مصدرنا عن تاريخ بنى إسرائيل فيختلف عن ذلك ، فيقول الأستاذ بارنز فى كتابه أصول الكتابة التاريخية "إن شرف إخراج أول سرد تاريخى متسع المجال ويتصف بنسبة عالية من الدقة يجب أن- يعزى إلى يهود فلسطين القديمة[١٨]".ويقول ستيفن كاتس Steven Katz "إن إسرائيل أول شعب يكتب التاريخ لغاية تؤكد أن هذا التاريخ تاريخ أخلاقى[١٩]. ونحن لا نختلف حول غاية التاريخ الإسرائيلى فى عصر العهد القديم والهدف من تدوينه بحكم أنه جاء فى إطار كتاب دينى. لكن ما يؤخذ على هذا التاريخ أن الأحداث التاريخية خصوصا ما ورد منها فى سفر التكوين إلى نهاية سفر الملوك الثانى قد دونت بعد حدوثها بفترة طويلة من الزمن أى أنها تعكس رؤية كُتابها المتأخرين، وليس زمن حدوث هذه الأحداث. وخلال هذه الفترة المتأخرة التى دون فيها تاريخ اليهود القديم كانت شعوب الشرق الأدنى قد وصلت درجة من التقدم والرقى فى الكتابة التاريخية لأحداث عصرهم ، لم يبلغها اليهود . لكن ما يميز تدوين التاريخ اليهودى خلال هذه الفترة المتأخرة المغزى والهدف من تدوينه أى تهذيب الجماعة وتوجيهها إلى عبادة يهوه، ومما يؤكد ذلك أن مؤلفى العهد القديم لم يهتموا بتدوين التاريخ من وجهة النظر الحديثة لأن التوراة قانون فى المقام الأول[٢٠].

وتعتبر المادة التاريخية فى التوراة إضافة لها معنى وأهمية فحواها التأكيد على عظمة الرب وتدخله وسيطرته على التاريخ الإسرائيلى من بدايته وربط الدين بالتاريخ. ومن الاختلافات الهامة بين التأريخ عند شعوب الشرق الأدنى وبين التأريخ عند اليهود، أن شعوب الشرق الأدنى تركز على التواريخ الشخصية، أما المؤرخ اليهودى القديم لم يهتم بتواريخ شخصية فحسب بل إنه اهتم بتقديم رؤية شاملة لتاريخ بنى إسرائيل[٢١] وذلك من خلال توجيه الرب وتدخله فى التاريخ ولذا صار التاريخ أساسا هاما لديانة إسرائيل[٢٢].

ويجب التأكيد أن التاريخ أساس هام لديانة إسرائيل. وفسر التاريخ على أساس الدين، فالهدف الأول هو تأكيد عظمة الرب يهوه ، وإظهاره بأنه هو الموجه للتاريخ وحركته، وهذا التاريخ هو تاريخ العهد والاختيار، وإرادة الرب – إله الإسرائيليين – أصبحت معروفة من خلال تجارب تاريخية معينة(٢٣)– مثل حادثة الخروج،وإعطاء الملكية لداود وبيته، وتدمير السامرة على أيد الأشوريين وبعدها يهوذا على أيد البابليين.

كما يجب أيضا فهم ــ طبقا لرؤية العهد القديم ــ أن الرب استخدم اليد البشرية لتنفيذ غرضه الإلهى سواء بالعقاب أو الثواب. ولذا فإن الروايات التاريخية تقدم أن الرب هو المسيطر على معنى التاريخ وأنه لا دخل للإرادة البشرية فى التاريخ . فالتاريخ تاريخ إلهى مقدس يعبر عن إرادة الرب . ولذلك فإن العديد من الروايات فى العهد القديم غرضها التهذيب الروحى والأخلاقى(٢٤). يفسر ذلك أن مؤلفى العهد القديم اهتموا فقط بسرد الأحداث التاريخية التى يتدخل فيها الرب.

وهكذا نجد أن بنى إسرائيل ينظرون إلى الأحداث من وجهة نظر دينية خالصة، والرب فى اعتقادهم هو المحرك للتاريخ، ولذلك أخذ تاريخهم بصفة عامة صفة القدسية لتدخل الرب فيه. ويمكن القول إجمالا أن غرض الرواية التاريخية فى العهد القديم غرض دينى يعبر عن إرادة الرب. وفكرة التاريخ العبرى القديم بإيجاز هى التأكيد على التحرر من مصر كعامل فاصل مقدس للشعب(٢٥).

سادسا ــ فلسفة التاريخ الإسرائيلى فى العهد القديم

يمكن القول بأن فلسفة التاريخ تعنى تفسير الأحداث التاريخية من خلال وجهة نظر معينة. وبما أن العهد القديم هو مصدر تاريخ بنى إسرائيل، وأنه أيضا مصدر عقيدهم فقد ارتبطت فيه الأحداث التاريخية بالأحداث الدينية. وأصبح التاريخ الإسرائيلى القديم يفسر من وجهة نظر دينية وصار للرواية التاريخية غرض دينى يهدف إلى تعليم الجماعة والاستفادة مستقبلا من الأحداث التى يتدخل فيها

الرب .

وكما ذكرنا فإن التاريخ الإسرائيلى القديم له قصد أخلاقى يكمن فى تهذيب الجماعة وإصلاحها ، ولم يكن هذا القصد جزافا أو أمرا نظريا فحسب بل الغرض منه أن يستخلص المؤمن العبر[٢٦] . وفى ضوء هذا الفهم فسرت كل الأحداث التاريخية . ولذلك يمكن القول بصفة عامة أن فلسفة التاريخ الإسرائيلى القديم كما يعرضها العهد القديم لا تعنى أكثر من تفسير الأحداث التاريخية تفسيرا دينيا يبين ارتباط هذه الأحداث بإرادة الرب – إله بنى إسرائيل. غير أن هناك مشكلة تواجه الباحث فى فلسفة التاريخ كما يعرضها العهد القديم، وهى أن الباحث أمام فلسفات ورؤى مختلفة ومتنوعة بل ومتناقضة أحيانا، ويعود السبب فى ذلك إلى طبيعة المادة المذكورة فى العهد القديم. فمادة العهد القديم ليست على نسق واحد بل تعود إلى اتجاهات فكرية وأدبية وتاريخية ولغوية متنوعة، ويعود ذلك إلى تعدد مصادر التوراة بصفة خاصة وبقية أسفار العهد القديم بصفة عامة. فتعدد المصادر أدى إلى تعدد الرؤى والتفاسير لأحداث التاريخ وأحداث الديانة التى هى فى الواقع فلسفات مختلفة لتاريخ إسرائيل القديم، لذلك يجب علينا أن نعرض فلسفة التاريخ الإسرائيلى القديم من خلال رؤى مصادر التوراة.

١ــ فلسفة التاريخ الإسرائيلى فى المصدر اليهوى

يعد المصدر اليهوى فى رأى كثير من الباحثين أقدم مصادر التوراة، وسمى بذلك نسبة إلى اسم الإله يهوه. قدم المصدر اليهوى تاريخا متصلا لتاريخ بنى إسرائيل وذلك منذ بداية الخلق وحتى الخروج من مصر، بل امتد التاريخ اليهوى ليصل إلى سفر الملوك الأول ١٢[٢٧]. وقد سيطرت فلسفة محددة على المحرر اليهوى لتاريخ إسرائيل القديم، فيلاحظ أن المحرر اليهوى لم يضع خطا فاصلا بين تاريخ نشأة الكون وتاريخ الآباء، أو تاريخ الآباء وتاريخ موسى[٢٨]. ويقدم المصدر اليهوى تاريخا شاملا لكنه مكتوب بأسلوب روائى ساذج وبسيط أقرب إلى الرواية

الشعبية[٢٩]، ويعود ذلك إلى أن هذا المصدر يشكل نقطة الانطلاق من دائرة الأسطورة والخرافة إلى نقطة الانطلاقه التاريخية [٣٠]. ومن الفلسفة السائدة فى روايات المصدر اليهوى سرده أحداث التاريخ بصورة درامية يظهر ذلك فى أسلوب اختيار إسرائيل لتكون أداة مقدسة للأمم .

ينظر المحرر اليهوى إلى التاريخ بأنه تاريخ متطور وليس تاريخا جامدا أى تسيطر عليه الديناميكية. يظهر هذا التطور فى رواية الأحداث لتحقيق هدفه وغرضه وذلك منذ لحظة لعنة كنعان بسبب أثم حام ومباركة سام ويافث ، وجعل كنعان خاضعا لهما . لذلك يظهر اليهوى كنعان دائما بمظهر الخاضع والمرؤوس ، ويسير التطور فى اتجاه واحد حيث يتم الاختيار لشخصية واحدة حتى يصل إلى يعقوب الذى منه طبقا لرؤية المصدر اليهوى تكون شعب واحد من سائر الشعوب. وهدف من ذلك أعطاء أهمية شاملة لإسرائيل بين شعوب الأرض . وكل فصل أو عزل منذ سام وحتى الوصول إلى يعقوب يعكس صراعا سياسيا ، ودائما كان يظهر يهوه فى اللحظة الحاسمة أى فى قمة الحدث . وتم صياغة هذه اللحظة الحاسمة فى صورة درامية ، مما يؤكد أن يهوه هو الباعث الحقيقى للتاريخ ، وأنه ينفذ وعده رغم المخاطر التاريخية والسياسية .

ومن المواقف الدرامية التى يظهر فيها يهوه فى الوقت المناسب قصة عقم إبراهيم حيث نجد الرب يظهر فى الوقت المناسب حتى لا يرثه ابن بيته (التكوين ١٥: ٣؛ ١٨: ٩)، وتم تحقيق البشارة بميلاد إسحاق (٢١: ١ـــ ٢أ). وتظهر الدراما كذلك فى قصة فرعون مصر مع إبراهيم حيث يتدخل الرب فى اللحظة الحاسمة أيضا (تكوين ١٢: ١٠ـــ ٢٠)، ومثلها قصة إسحاق ورفقة (٢٦: ٧ـــ ١١)، وأثناء الخروج من مصر نجد الرب يشير إلى أن المصريين لن يتركوا جماعته تخرج بسهولة فيتدخل فى اللحظة الحاسمة من خلال العجائب التى يصنعها الرب (الخروج ٣: ١٩ـــ ٢٠؛ ثم الضربات العشر التى قسم كبير منها ينتمى للمصدر

اليهوى، فكلما حدثت ضربة يعاود الفرعون ملاحقة الجماعة فيقوم الرب ويتدخل فى اللحظة الحاسمة من خلال ضربة جديدة حتى تصل الضربات إلى ذروتها فى حادث انشقاق البحر وغرق الفرعون.

فالتاريخ الإسرائيلى يتجه إذا نحو هدف محدد هو مباركة نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب رغم كل العقبات، وذلك لأنها إرادة يهوه. وتبرز إرادة يهوه واضحة من خلال عهده مع إبراهيم وذريته (إسحاق ويعقوب) من بعده ، ومضمون هذا العهد أن أرض كنعان ستصبح إرثا أبديا لهم ، وبما أن هؤلاء هم آباء الجماعة فإن الجماعة تصبح جماعة العهد . ولذلك فسر المحرر اليهوى كل أحداث الآباء تفسيرا بناء على هذا الوعد (تكوين ١٢: ١ــ ٣ ٢٤: ٧). وتعتبر هذه الرؤية رؤية عنصرية حيث تم التخلى عن بقية نسل إبراهيم . ويواصل اليهوى عنصريته من خلال ربط تاريخ الآباء بتاريخ مملكة داود وسليمان وتاريخ مملكة الجنوب التى يعتقد أن المصدر اليهوى يعود إليها . فيعتقد سوجين أن العبارة (١٢: ١ــ ٣) التى تتحدث عن جعل إبراهيم أمة عظيمة وامتلاكها أرض كنعان ترتبط ارتباطا أسلوبيا بما ورد فى سفر صموئيل الثانى ٧: ٩ ب)[٣١].

يظهر الأثر الجنوبى فى فلسفة التاريخ اليهوى من خلال توضيح أن رحلة إبراهيم تمت عبر شكيم ثم بيت إيل ومواصلة الرحلة حتى الجنوب(١٢: ٦ــ ٩). فالنص يشير إلى أن إبراهيم اجتاز شكيم فقط، والاجتياز يعنى عدم البقاء أو الاستقرار، وذلك لأن شكيم تنتمى لتراث الشمال، لكن إبراهيم استقر فى حبرون وبنى بها مذبحا، فهى تقع فى نطاق يهوذا، كما أنها إرث كالب أحد نسل يهوذا، كما أنها أول عاصمة لداود والتى مسح فيها داود مرتين (صموئيل الثانى ٢: ٤؛ ٥: ٣)، كما أنها مثلت أهمية دينية لدى اليهوذيين حيث إنها كانت تمثل بالنسبة لهم المكان الأكثر قداسة.

ويظهر الربط بين روايات الآباء ومملكة داود أيضا فى كثير من الأفكار

والرؤى فالعهد الذى أعطى لإبراهيم لم يتحقق إلا فى عصر داوود، فيربط المحرر اليهوى حدود مملكة داود بحدود العهد اليهوى مع إبراهيم وهو من النيل إلى الفرات(التكوين ١٥: ١٨). والصراع الذى حدث بين يعقوب وعيسو هو رمز للصراع بين يهوذا وأدوم حيث أخضع داود وسليمان الأدوميين مرات عدة لسيطرتهم . واهتم المحرر اليهوى بتفسير أسماء أسباط الجنوب (رأوبين وشمعون ولاوى ويهوذا (التكوين ٢٩: ٣١ــ ٣٥). وكما أن الابن الرابع من نسل يعقوب تمت مباركته (٤٩: ٣ــ٨) أى تم إعطاء القيادة ليهوذا ، نجد فى روايات داوود أن سليمان هو الذى يرث الملكية وهو الابن الرابع ، وأن آثام رأوبين وشمعون ولاوى هى نفسها آثام أبشالوم .

وفيما يتعلق بموقف المصدر اليهوى من الأمم والشعوب يلاحظ أنه اتخذ موقفا عدائيا واضحا من بعض الشعوب خاصة الكنعانيين وقد ذكرنا أنه جعلهم خاضعين ومرؤوسين لكل من نسل سام ويافث . وهذا الموقف العدائى له ما يبرره فى الفكر اليهوى وهو أن الكنعانيين هم سكان الأرض التى وعد بها بنو إسرائيل وظلوا عقبة أمامهم طوال التاريخ . ومن نتائج الموقف العدائى هذا نجد أن اليهوى يحرم الزواج من الكنعانيات بل اعتبر الزواج منهن إثما، فإبراهيم يأمر عبده ألا يتخذ لابنه منهن زوجات(التكوين ٢٤: ٣) وتضمنت بركة إسحاق ليعقوب وصية بعدم الزواج من الكنعانيات(٢٤ : ٣٧، ٢٨: ١؛ ٣٤: ٣٠؛ ٥٠: ١١).

٢ ــ فلسفة التاريخ الإسرائيلى فى المصدر الإلوهيمى

يعد المصدر الإلوهيمى فى رأى بعض الباحثين أحدث من المصدر اليهوى، وتعود تسميته نسبة إلى اسم الإله إلوهيم. وإذا كان المصدر اليهوى ربط تاريخ بنى إسرائيل ببداية الخلق وبدأ عرض التاريخ منذ نشأة الكون ليعطى أهمية لاهوتية لتاريخ بنى إسرائيل، وعرض التاريخ من خلال رؤية درامية، فإن المصدر الإلوهيمى بدأ عرض التاريخ منذ عصر إبراهيم مهملا الفترة التاريخية السابقة على

هذا التاريخ[٣٢]. وبالتالى فقدت رواية الإلوهيمى العمق اللاهوتى ونتج عن ذلك أن الإلوهيمى فى عرضه للتاريخ لم يعط أى أثر للنقاش حول طبيعة مشاكل تاريخية أو سياسية، ورغم ذلك فقد ركز فى روايته للتاريخ على الجانب الأخلاقى[٣٣]، كما فى رواية إبراهيم وسارة مع أبيمالك حيث يظهر له الرب طالبا منه أن يخبر أبيمالك بأنها زوجته (٢٠: ١ـ ٧) . ويظهر الجانب الأخلاقى فى قصة إبعاد هاجر حيث جعل قصة الإبعاد أمرا إلهيا وليس نتيجة ضغط من سارة (٢١: ١٠ـ ١٢). ويبدو الهدف الأخلاقى واضحا فى قصة بكورية يعقوب حيث يظهر أن إسحاق هو الذى تنازل عن البكورية حيث باعها ليعقوب، وليس نتيجة غش تدخلت فيه الأم (٢٥: ٢٧ـ٣٤) . وكما أن اليهوى كان يعطى أهمية للدراما حتى تبلغ ذروتها نجد الإلوهيمى يعطى الجانب الأخلاقى قيمة وأهمية كبيره فى عرضه لأحداث التاريخ وتبرز قيمة الأخلاق عند الإلوهيمى فى قصة يوسف، فتظهر القصة أن العناية الإلهية تحكم وتسيطر على حياة الفرد فيعتبر يوسف أن طلب سيدته شرا عظيما وأنها خطيئة إلى الله (٣٩: ٩). والشر الذى أضمره أخوته له فى الصغر فإنه وهو فى قمة السيادة يرى أن الله قصد من ذلك خيرا لهم جميعا بهدف بقاء الجماعة وعدم فنائها (٥٠: ٢٠)، وهنا يظهر أن الغرض من هذا البعد الأخلاقى القيمة الوعظية من سرد الأحداث التاريخية.

وقد فلسف المحرر الإلوهيمى تاريخ الآباء من خلال ربطه بمملكة الشمال التى يعتقد أنها مكان تحرير المصدر . فقد ركز المحرر فى روايات الآباء على الأماكن الجغرافية التى تنتمى للملكة الشمال[٣٤]،فإبراهيم يسكن بئر سبع (١٢: ١٤، ٢٢: ١٩، ٢٠: ١)كما أنها كانت موطن يعقوب قبل ذهابه إلى حاران (٢٨: ١٠، ٤٦: ١، ٥) . وتتضح أهمية بئر سبع عند المحرر الإلوهيمى لأنها كانت المكان المقدس الأكثر أهمية لدى الإفراميين. ومن الأماكن التى تنتمى إلى مملكة الشمال وأعطاها المحرر الإلوهيمى أهمية شكيم فكانت الأرض التى نزل فيها يعقوب بعد عودته من حاران كما كانت مرعى أبنائه (٣٣: ١٨، ٣٧: ١٢ـ ١٣) . فتركيز

المحرر الإلوهيمى على شكيم يعود إلى أنها كانت عاصمة مملكة الشمال .

وعلى مستوى الأسماء نجد أن المحرر الإلوهيمى يرى أن تسمية أسباط الشمال تم بناء على رغبة إلوهيم وليس رغبة يهوه (٣٠: ٦ـــ ٢١). وقد احتل رأوبين مكان القيادة فى التراث الإلوهيمى خاصة فى قصة يهوذا[٣٥]، فرأوبين هو الذى أنقذ يوسف من القتل (٣٧: ٢٢).وفى التراث الإلوهيمى نجد أن يعقوب قد بارك إفرايم بدلا من منسى رغم أن منسى هو البكر، وذلك أن مملكة الشمال كانت تدعى مملكة إفرايم.

وفيما يتعلق بشعب فلسطين قبل قدوم بنى إسرائيل يرى الإلوهيمى أنهم كانوا الأموريين وليس الكنعانيين، كما أنه يقف موقفا إيجابيا من الشعوب[٣٦] فنجده يعطى أهمية للمصريين فلم يعتبر الزواج منهم إثما فتزوج يوسف من أسنات بنت فوطى فارع، كما أطلق فرعون على يوسف اسما مصريا هو صفنات فعنيح .

٣ ـــ فلسفة التاريخ الإسرائيلى فى المصدر الكهنوتى

يرجع تاريخ هذا المصدر إلى عصر السبى البابلى ، وسمى بذلك لأنه يهتم بالكهنة وأعمالهم، كما أنه يعطى أهمية للطقوس والشعائر الدينية لذلك فإن المادة التاريخية التى يعرضها تعد مادة ثانوية حيث تغلب على مادته المادة المرتبطة بالقوانين والتشريعات خاصة المرتبطة بالقرابين والذبائح وأعمال الكهنة ، ورغم ذلك فإننا نتلمس فيه مادة تاريخية . والمادة التاريخية التى يقدمها تبدأ من خلق العالم بهدف ربط تاريخ إسرائيل ببداية الخلق والتأكيد على أزلية وجودها وجعل الإله هو المسؤول عن تاريخ إسرائيل . فالرب هو خالق الكون وسرمدى كذلك تاريخ العالم وتاريخ إسرائيل يخضع لإرادة الإله . والهدف من الحديث عن تاريخ العالم والانتقال إلى تاريخ إسرائيل هو ربط التاريخ الخاص بالتاريخ العام وأنه جزء لا ينفصل عن التاريخ العام لكن التاريخ الخاص له هدف وغاية[٣٧].

رغم ذلك لم يقدم لنا المحرر الكهنوتى تفصيلات مسهبة عند عرض المادة التارخية بل يقدم لنا التاريخ من خلال قوائم أنساب ففقد بذلك الأهمية الدرامية التى تميز بها المصدر اليهوى، وفقد كذلك البعد الأخلاقى الذى تميزت به الرواية الإلوهيمية. وقدم لنا الكهنوتى مادة تاريخية من خلال تقسيمها إلى فصول قدم لكل منها بعنوان : تلك مواليد ... " التى تكررت فى عرضه لروايات كثير من الأحداث مما يجعل الباحث يشعر بملل وتكرار ورتابة .فذكر عشرة أجيال من آدم حتى الطوفان ثم عشرة أجيال من نوح حتى إبراهيم . ونتج عن هذا الأسلوب الذى يمكن أن نعتبره إحصائيا أكثر منه تاريخيا بالمعنى العام أن حذف كثيرا من الروايات، كما فى قصة سدوم وعمورة وإبراهيم وإسحاق وإسماعيل ويعقوب، وحذف كل روايات زواج الآباء بل قصة تغيير اسم يعقوب إلى إسرائيل لا وجود لها فى هذا المصدر.

والمحرر الكهنوتى متأثر بالمحرر اليهوى فى موقفه من الكنعانيين فلم يجعلهم ممن نسل سام بل جعلهم من نسل حام وأوجب محاربتهم عند دخول بنى إسرائيل إلى أرض كنعان.

سابعا ـــ التفسير النبوى للتاريخ الإسرائيلى

يمكن القول بأن التاريخ المقدس لإسرائيل قد انتهى عند النقطة التى تكونت فيها الملكية فى بنى إسرائيل أى أن التاريخ الإلهى الذى تدخل فيه الرب ووعد وحقق وعده انتهى باستيلائهم على أرض كنعان وسيادتهم عليها، ولذا فإنه كان من الواجب أن تحافظ الجماعة على عهدها مع الرب بعبادته وطاعته وولائها له، بعد أن نفذ لها وعده، لكن حدث العكس، فبعد موت سليمان نجد أن بنى إسرائيل قد ارتدوا عن عبادة الرب وتنقسم المملكة إلى مملكتين شمالية وجنوبية. يبدو ذلك من سفرى الملوك الأول والثانى حيث يذكر المؤلف أن كل ملوك إسرائيل كانوا أشرارا، وفى مقابل هذا كان يرى بعض الخير فى ملوك يهوذا. وكان من أهم نتائج

انقسام المملكة ظهور عدد كبير من الأنبياء الذين كانوا يدعون إلى الإصلاح بل أن بعضهم لعب دور المفسر لأحداث التاريخ الإسرائيلى القديم[٣٨].

فالأحداث التاريخية التى وقعت لإسرائيل أو يهوذا سواء السابقة على زمن الأنبياء أو التى عصروها فسرها الأنبياء على أنها عقاب من الرب لجماعته، ولم يعطوا أهمية إلى العوامل السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية التى تطورت فى الشرق الأدنى القديم. وتفهم لذلك ظاهرة تعدد الأنبياء فى اليهودية بأنها تعبير عن حلول الله فى التاريخ، وهو حلول لا يتوقف عند نقطة ما بل يستمر من بداية التاريخ حتى نهايته[٣٩].

ارتبطت النبوة عند بنى إسرائيل بالتاريخ من البداية فيتحدث الرب إلى موسى "فقال الرب لموسى أنى قد رأيت مذلة شعبى الذى فى مصر وسمعت صراخهم من أجل مسخريهم. أنى علمت أوجاعهم. فنزلت لأنقذهم من أيدى المصريين وأصعدهم من تلك الأرض إلى أرض جيدة وواسعة. إلى أرض تفيض لبنا وعسلا. إلى مكان الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفريزيين والحويين واليبوسيين"[٤٠] فهنا يتحدث الرب إلى موسى بلسان الواقع، أى أن التاريخ ارتبط بالنبوة من بدايتها، والرب طبقا لهذا النص هو المخلص والمنقذ لجماعته.

وحيث إن التاريخ ارتبط بالنبوة من بدايتها فقد فهم الأنبياء سيطرة الرب الإله على التاريخ منذ بدايته، وفهموا أيضا التاريخ بأنه سلسلة من الوعود وتحقيق هذه الوعود. وفسر كل أنبياء بنى إسرائيل أحداث التاريخ من خلال هذا المنظور الدينى، غاضين الطرف عن الأحداث السياسية الدولية التى كانوا معاصرين لها. فقد ظهر عاموس وهوشع وإشعيا الأول فى فترة سياسية كانت فيها الإمبراطورية الأشورية قد وصلت إلى ذروة قوتها وتوسعاتها فى الشرق الأدنى العربى القديم، وأخضعت تحت سيطرتها الكثير من شعوب الشرق الأدنى القديم. ورغم ذلك فإنهم يفسرون التدهور السياسى بأنه نتيجة الأخطاء الأخلاقية والدينية التى سادت فى

إسرائيل على وجه الخصوص ولهذا السبب يقول عاموس "... ضيق فى كل ناحية من الأرض فيترل عن عزك وتنهب قصورك ... كما ينزع الراعى من فم الأسد كراعين أو قطعة أذن هكذا تنتزع بنو إسرائيل الجالسون فى السامرة فى زاوية السرير وعلى دمقس الفراش " (عاموس ٣: ١١ ــ ١٢) . ولم يكتف النبى بذلك بل يشير إلى أنه نتيجة الأخطاء سوف يحدث السبى لمملكة الشمال، وأن السبى يكون تدريجيا " ... لأن الجلجال تسبى سبيا وبيت إيل تصير عدما فأسبيكم إلى ما وراء دمشق ... " (٥: ٥، ١٧) .فيفهم من هذا النص أن النبى لا يعطى أى أهمية للقوة السياسة لأشور بل يرى أن السبى هو نتيجة طبيعية لأخطاء إسرائيل، وليس نتيجة الأحداث السياسة الخارجية. ويشبه النبى هوشع عاموس فى هذا التفسير حيث يرى أن الخطيئة الدينية هى السبب المباشر لتدهور الأوضاع السياسية بل إن سياسة التحالفات لن تجلب سوى الدمار والخراب الدينى والسياسى: " إفرايم راعى الريح الصالح وتابع الريح الشرقية كل يوم يكثر الكذب والاغتصاب ويقطعون عهدا مع أشور والزيت إلى مصر يجلب "(هوشع ١٢: ٢). وكانت النتيجة المباشرة للأخطاء الدينية وسياسة التحالفات هى تعطيل الحياة الدينية والسياسية:" لأن بنى إسرائيل سيقعدون أياما كثيرة بلا ملك وبلا رئيس وبلا ذبيحة " (٣: ٤). ويصل الأمر إلى ذروته فى نبوءة النبى بإنهاء علاقة الرب مع إسرائيل ووقوع السبى، فالسبى هنا ليس نتيجة ضعف سياسى بل نتيجة نكث العهد حيث يرفضهم الرب ويطردهم من رحمته ويمحو علاقته معه، ثم يبدأ بإحداث الكوارث فيهم وينتهى ذلك بالسبى: " أطردهم من بيتى ... لأنكم لستم شعبى ... كذلك تنوح الأرض وتذبل ... قد هلك شعبى من عدم المعرفة ... فيكونون تائهين بين الأمم ... قد ابتلع إسرائيل، الآن صاروا بين الأمم كإناء لا حسرة فيه ... إنهم إلى مصر يرجعون ... لا يسكنون أرض الرب بل يرجع إفرايم إلى مصر ويأكلون النجس فى أشور ..." .

كما يعيب النبى ميخا هو الآخر يعيب الفقراء من جانب الأغنياء فيقول:

"الذين يبنون صهيون بالدماء وأرشليم بالظلم رؤساؤها يقضون بالرشوة وكهنتها يعلمون بالأجرة وأنبياؤها يعرفون بالفضة وهم يتوكلون على الرب قائلين أليس الرب فى وسطنا لا يأتى علينا شر"[٤١]. وبسبب هذه الأخطاء من جانب الأغنياء تجاه الفقراء يحل الخراب بكل من السامرة وأورشليم فهو أول من تنبأ بخراب أورشليم فالأنبياء السابقين تنبأوا بسقوط السامرة فى السبى ، أما النبى ميخا فيضيف هنا أورشليم " فأجعل السامرة خربة فى البرية ... وتصير أورشليم خرابا ..." . فالنبى ميخا هو الآخر لا يعطى أى قيمة لأحداث التاريخ أو القوى السياسية سواء أشور أو مصر بل الحصار والسبى عنده نتيجة طبيعية للأخطاء الأخلاقية والدينية .

وأشعيا الأول يستخدم التاريخ الماضى للجماعة ويبين معرفته به[٤٢] فيشير إلى شرور سدوم "لولا أن الرب أبقى لنا بقية صغيرة نصرنا مثل سدوم وشابهنا عموره"[٤٣]، وما فعله المصريون (إشعيا ١٠ : ٢٤) .ويرسم إشعيا فى الاصحاحات ٢ – ٥ المساوئ الاجتماعية والمدنية فينذر الذين سلكوا طريق الخطأ "ويل للمبكرين صباحا يتبعون المسكر. للمتأخرين فى العتمة تلهيهم الخمر. وصار العود والرباب والدف والناى والخمر ولائهم وإلى فعل الرب لا ينظرون وعمل يديه لا يرون، لذلك سبى شعبى لعدم المعرفة ونصير شرفاؤه رجال جوع وعامته يابسين من العطش"[٤٤]، وينذر إشعيا الأغنياء " ويل للذين يصلون بيتا ببيت ويقرنون حقلا بحقل حتى لم يبق موضع. فصرتم تسكنون وحدكم فى وسط الأرض"[٤٥]. ثم يصرح علانية بأن العالم يرتعد لقوة أشور (إشعيا ٧ : ١٧، ١٠ : ٥-١٩). فالنبى هنا لا يفسر حدوث السبى الأشورى على أنه انتصار لقوة سياسية جامحة تحاول السيطرة على منطقة الشرق الأدنى وأن مملكة إسرائيل مملكة ضعيفة سياسيا ولن يفيدها الاعتماد على قوى خارجية ، حيث إن الرب أصدر قراره بمعاقبة إسرائيل بسبب أخطائها الأخلاقية والعقدية . والنبى إشعيا الذى شاهد دمار السامرة وتنبأ بسقوط أورشليم "أفليس كما صنعت بالسامرة وأوثانها

أصنع بأورشليم وأصنامها"[٤٦] . فالنبى إشعيا يربط العقاب بالوثنية ونكث العهد مع الرب بسبب الابتعاد عنه وعبادة الأوثان والأصنام، ولما كانت مباركة الرب للجماعة تعنى الطاعة، ونكثت إسرائيل العهد لذلك حل عليها العقاب[٤٧]. ولهذا نظر الأنبياء إلى تاريخ جماعتهم على أنه تاريخ الأثم والعصيان ضد الرب الذى جعلهم جماعته وأعطاهم أرض كنعان. ونتيجة العصيان والتمرد ضد إرادة الرب فكثيرا ما أخذت دعوات أنبياء بنى إسرائيل شكل الحركات الإصلاحية داخل التاريخ والدين اليهودى[٤٨].

وهكذا نرى تشابه جميع رؤى هؤلاء الأنبياء وغيرهم فى أن السبب الرئيسى لحدوث السبى الأشورى أو البابلى نتيجة مباشرة لأخطاء إسرائيل الأخلاقية والعقدية، أو بسبب اعتمادها على قوى خارجية وعدم الثقة فى قدرة الرب. يمكن القول أيضا أن جميع الأنبياء يرون أن الخلاص لا يكون إلا من خلال العودة إلى الأخلاق الصحيحة والعقيدة المستقيمة، وليس من خلال قوة سياسية أو عسكرية.

وبما أن الأنبياء قد ركزوا فى تفسيرهم لأحداث التاريخ على الجانب الدينى وما يرتبط به من فساد اجتماعى وأخلاقى، وربطوا هذا الفساد بالعصيان والتمرد فكثيرا ما أعطوا صورة سيئة لإسرائيل وشبهوا إسرائيل بصفات اجتماعية قبيحة. من هذه الصفات القبيحة وصفها بأنها زانية أو عاهرة أو ابن ضال، وتلك التشبيهات يمكن رؤيتها بوضوح فى أسفار الأنبياء خصوصا أولئك الذين عاشوا فى العصر الأشورى فالنبى هوشع شبه إسرائيل بزوجة خائنة للرب التى تركته لتسير وراء آلهة أخرى (هوشع – ٢ : ٥–٨) ،أو أولئك الذين عاشوا زمن الإمبراطورية الكلدانية، فإرميا استمد هذه الصورة كما أن النبى حزقيال صور هو الآخر نفس الصورة (حزقيال ١٦، ٢٣). أما إشعيا فإنه يصور إسرائيل ككرم يهوه فيقول "لأنشدن عن حبيبى محى لكرمه. كان لحبيى كرم على أكمة خصبة فنقبه ونقى حجارته وغرسه كرم سورق وبنى برجا فى وسطه ونقر فيه أيضا معصرة فانتظر أن

يضع عنبا فصنع عنبا رديئا. والآن يا سكان أورشليم ورجال يهوذا احكموا بينى وبين كرمى. ماذا يصنع لكرمى وأنه لم أصنع له. لماذا إذ انتظرت أن يصنع عنبا صنع عنبا رديئا. فالآن أعرفكم ماذا أصنع بكرمى. انزع سياجه فيصير للرعى. اهدم جدرانه فيصير للدرس. وأجعله خرابا لا يقضب ولا ينقب فيطلع شوك وحسك وأوصى الغيم أن لا يمطر عليه مطرا"(٤٩)

ورغم الصور السيئة التى رسمها الأنبياء لإسرائيل فإنهم حاولوا ربط الماضى بالمستقبل وصار الهدف للمستقبل مرتبطا بالعودة إلى تقليد الماضى(٥٠)، فأحداث الماضى مهمة بحيث يمكن الاستفادة منها للمستقبل.ولا يعود الأنبياء بالزمن الماضى إلى زمن الخروج من مصر لكن من بداية التاريخ البشرى وخلق العالم. فالنبى إشعيا الثانى يربط التحرر من مصر مع أسطورة النزاع البدائى مع التنين وفى نفس الوقت يربطها بالأمل وعودة اليهود إلى أورشليم، فيقول: استيقظى استيقظى البسى ... استيقظى كما فى القدم كما فى الأدوار القديمة. ألست أنت القاطعة رهب الطاعنة التنين. الست أنت هى المنشقة البحر مياه الغمر العظيم الجاعلة أعماق البحر طريقا لعبور... يرجعون ويأتون إلى صهيون بالترنم وعلى رؤوسهم فرح أبدى ابتهاج وفرح يدركانهم يهرب الحزن والتنهد"(٥١). أيضا يذكر حادثة الطوفان "لأنه كمياه نوح هذه لى. كما حلفت أن لا تعبر بعد مياه نوح على الأرض هكذا حلفت أن لا أغضب عليك ولا أزجرك"(٥٢).

وقد سادت رؤية الخلاص هذه عند أنبياء العصر الفارسى الذين أعطوا الأمل وتحقيق الخلاص مرة ثانية كما حدث ذلك من قبل زمن النبى موسى. وبذلك نجد أن الرب يحل فى التاريخ اليهودى من البداية وحتى النهاية لهذا صار من الطبيعى أن تفسر كل الأحداث التاريخية تفسيرا دينيا. وحلول الله فى التاريخ اليهودى بهذه الصورة حول التاريخ إلى خط مستقيم يتحرك نحو هدف أعلى وغاية نهائية وليس شكلا دائريا هندسيا يتحرك حول نفسه دون غاية(٥٣)، وغاية التاريخ اليهودى هى أنه لابد من يوم للرب: " فإن لرب الجنود يوما على كل متعظم وعال وعلى

أنه لابد من يوم للرب: " فإن لرب الجنود يوما على كل متعظم وعال وعلى كل مرتفع فيوضع"(٥٤). وتلك الغاية كشفها الأنبياء وأنه لابد أن يكون للمتمرد العاصى نهاية حتى يجدد يهوه عهده مع إسرائيل، وهو العهد الذى قطعه الرب – إله الإسرائيليين – مع إسرائيل فى شبابها.

والتاريخ الإسرائيلى بهذه الصورة تاريخ متصل وأن الإرادة البشرية لا دخل لها فى حركة التاريخ وأن الرب هو المسيطر على حركة التاريخ الإسرائيلى منذ بدايته، فانتصارات وهزائم بنى إسرائيل لا تتم إلا بتدخل الرب إله إسرائيل فيها. ونتيجة لتلك الفلسفة التاريخية، ففهم أنبياء إسرائيل خاصة والجماعة عامة أن أزمات التاريخ التى تمر بها الجماعة ليست إلا دعوات إلهية أو نوع من الوحى والإلهام الإلهى أو إنذار أو تحذير من الرب ودعوة إلى طلب العفو وبذلك أصبح التاريخ يستخدم لكى يظهر خطايا الشعب ويعلن حلول وقت التوبة فى التاريخ ويكون الوعد بالمغفرة أو المزيد من الوعيد أن لم تحدث التوبة. ولهذا فإن كل الأحداث التاريخية الهامة لها مغزاها ومعناها الدينى والذى يمثل قمة الأزمة التى تتعرض لها الجماعة. وقد ظهرت الصبغة الدينية فى أعمال الأنبياء وارتبطت بتعليل أحداث التاريخ تعليلا دينيا والحكم على هذا التاريخ حكما يؤكد ارتباطه بإرادة السماء، ولهذا فإن الأنبياء أصحاب رؤى تاريخية تشرح الأحداث وتفسرها فى ظل معطيات الديانة اليهودية. (٥٥)

الفصل الثانى

من عصر الآباء حتى نهاية عصر القضاة

أولا ـــ عصر الآباء

يشمل عصر الآباء طبقا لرواية العهد القديم أربعة آباء هم إبراهيم وإسحاق ويعقوب ثم أبناء يعقوب أو ما يعرف باسم الأسباط، غير أنه يوجد بعض الباحثين الذين يضمون أفرايم ومنسى أبناء يوسف للآباء وبالتالى يكون الآباء خمسة. يلاحظ من رواية سفر التكوين أن الحديث عن هذه الفترة التاريخية يركز على شخصيات فى المقام الأول، ولا نجد الحديث عن جماعة إلا بعد انتهاء عصر يوسف وأخوته وتحديدا بداية من لحظة الخروج من مصر.

يختلف الباحثون فى تحديد الفترة التاريخية التى ظهر فيها الآباء فيرى كل من أولبرايت وسبيزر أن عصر الآباء يبدأ فى النصف الأول من الألف الثانى قبل الميلاد وخاصة فى أوائل العصر البرونزى واعتمد هؤلاء على الشواهد الأثرية التى كشف عنها فى عبر الأردن الشرقى والنقب وكذلك وثائق مارى[١]. حاول هؤلاء الباحثون إيجاد ما يدعم رؤيتهم فى التوراة، فاعتمدوا على ما ورد فى سفر التكوين (١٥: ١٣) وسفر الخروج(١٢: ٤٠ــ ٤١).أما أيسفلت وكويفمان فيقترحان دمج عصر الآباء فى القرن الرابع عشر أى قبيل احتلال أرض كنعان والاستيلاء عليها[٢]،واعتمد هؤلاء على تعداد قوائم النسب فى سفر التكوين(٦: ١٦ــ ٢٠).

تعتبر السمة المميزة لعصر الآباء وصفه بأنه عصر تجوال وترحال، وطريق التجوال طبقا لرواية العهد القديم يبدأ من أور الكلدانيين ثم آرام النهرين فكنعان

وأخيرا مصر عبر صحراء سيناء. ولا يستبعد أن يكون هذا هو الطريق نفسه الذى سلكه أبناء سوريا الذين نزحوا إلى مصر، بل ربما يكون هو نفسه أيضا الطريق الذى كانت تسلكه القوى الكبرى فى العالم القديم ـ بابل وأشور والحيثيين ومصر ـ فى حروبها.

يشير العهد القديم أيضا بأن الآباء شخصيات وآباء عشائر انحدر منهم شعوبا وقبائل وأسباط فيما بعد. ولم يكن الآباء يتجولون بصورة فردية أو آباء أسر فحسب، بل وصفوا بأنهم كانوا زعماء لهم هيبة ووقار، وكان يرافقهم العديد من العبيد الذين ولدوا عندهم، أى أنهم كانوا أصحاب ثروة:" فأخذ إبراهيم ساراى إمرأته ولوطا ابن أخيه وكل مقتنياتهما التى اقتنيا والنفوس التى امتلكا فى حاران..."(التكوين١٢: ٥) (أنظر أيضا ١٣: ٧؛ ١٤: ١٤ـ ١٥؛ ١٧: ١٢). وكان لهؤلاء العبيد الذين يرافقون الآباء نفس الحقوق المحددة للأبناء الذين لهم حق الوراثة: " وقال إبرام أيضا أنك لم تعطنى نسلا وهو ذا ابن بيتى وارث لى ..." (١٥: ٢ـ ٤)، كما كانوا رجال حرب: " فلما سمع أبرام أن أخاه سبى... وانقسم عليهم ليلا هو وعبيده فكسرهم وتبعهم إلى حوبة التى عن شمال دمشق "(١٤: ١٤ـ ١٥).

وبصورة عامة تم تصوير عصر الآباء بأنه فترة آباء فرديين. ويعود ذلك إلى ندرة الوثائق التاريخية التى تذكر الآباء . وقد أدى عدم وجود وثائق تاريخية إلى انقسام الباحثين فيما يتعلق بصورة الآباء فقد أدرك البعض وفهم الآباء بأنهم شخصيات بطولية لروايات أسطورية[٣]، وأدرك آخرون أن شخصيات الآباء ترمز إلى أسباط قديمة تكون منها فيما بعد بنو إسرائيل[٤]. ويمكن أن نوفق بين هذين الرأيين، فنقول إن الآباء شخصيات بطولية، ولأن أحداثهم لم تدون زمن حدوثها تحولت الصورة التاريخية للآباء إلى صورة أسطورية خاصة إذا علمنا أن الصورة النهائية التى وصلت إلينا عنهم فى التوراة تعود إلى زمن عزرا الكاتب. فطول

الفترة الزمنية، أى الفترة بين حدوث الحدث وتدوينه حولت شخصية الآباء إلى شخصيات بطولية أسطورية، وصار هؤلاء فيما بعد رمزا للأسباط التى التمت لهذه الشخصيات.

يشير العهد القديم إلى أن إبراهيم كان له أرض وموطن سواء أكان أور الكلدانيين (١١: ٢٨)؛ أو حران (١٢: ١)، لكنه صار غريبا هو ونسله فى أرض كنعان، أى عاشوا بعيدا عن الوطن الأم وصاروا غرباء فى أى موضع ينزلون فيه ـ كنعان ومصر ـ ويعتبر ذلك سمة مميزة لعصر الآباء. فقد عاش الآباء على أرض غريبة ـ كنعان ومصر ـ بعيدا عن أى تاريخ ثقافى قومى ذاتى، فلم يستقروا فى موضع بعينه، ولم يختلطوا مع الشعوب التى عاشوا بينها، وتعد هذه سمة أخرى من السمات التى تميز بها عصر الآباء. ولم يستولوا على أى أرض أو جزء منها سواء بطريق الاحتلال العسكرى أو الاحتلال العنصرى القومى.

تؤكد التوراة على غربة الآباء وعدم استقرارهم فى أرض محددة لأنْ بنى إسرائيل لم يعرفوا الوحدة إلا أثناء الخروج من مصر بقيادة موسى النبى. والتاريخ السابق على الوجود العبرى بصورة عامة والإسرائيلى ـ بالمفهوم القومى الإثنى ـ بصفة خاصة فى مصر كان يمثل عصر التجوال، ومثّل الوجود العبرى فى مصر منذ عصر يوسف حتى عصر موسى ذروة اغتراب بنى إسرائيل التى عاشت بلا وطن أو أرض. تتضح هذه الرؤية من الوعود التى منحها الرب لآباء جماعة بنى إسرائيل . وقد سارت الوعود التى منحها الرب لآباء بنى إسرائيل فى اتجاهين، الأول ـ الوعد بزيادة النسل والوفرة، والثانى ـ الوعد بامتلاك أرض كنعان. تكررت الوعود مع كل من إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

وفى ضوء ما سبق فإن روايات الآباء روايات تاريخية وأن الآباء رموز أسباط وعشائر، وأن روايات الآباء هى أساس التكوين التاريخى لجماعة بنى إسرائيل، وأن

هذه الروايات تعكس رؤية فترة تاريخية متأخرة، ربما فى بداية عصر الملكية أو فى عصر السبى البابلى وهو الأرجح، وكان ذلك بهدف تشجيع المسبيين للعودة إلى أرض كنعان بعد أن رفض الكثير من المسبيين العودة إليها. يدل على ذلك التشابه الكبير فى صيغ الوعود المعطاة للآباء، وأن معظمها ــ إن لم يكن كلها ــ قد تمت صياغته بأسلوب مستقبلى. كما يمكن التأكيد أيضا أن تاريخ بنى إسرائيل القديم حفظ لنا فى شكل روايات أسرية وعشائرية، وليس جماعة مستقلة لها أرض أو وطن، وهذا يميز كما ذكرنا عصر الآباء بأنه عصر غربة وأن إسرائيل تكونت كجماعة مستقلة خارج نطاق أرض الوعد المزعومة، وتم ذلك فى أرض مصر، وأن الآباء لم يمتلكوا مطلقا أرض كنعان. أما الامتلاك فحدث بداية من عصر يشوع ووصل إلى امتلاك شبه تام فى عصرى داود وسليمان، وكل ذلك طبقا لرؤى العهد القديم.

وفيما يتعلق بعلاقة الآباء ــ إبراهيم وإسحاق ثم يعقوب بالعبريين وبنى إسرائيل، نلاحظ أن العهد القديم ذكر لأول مرة أسباط العبريين أثناء ذكر أبناء سام، كما وصف إبراهيم بأنه عبرانى:" فأتى من نجا وأخبر أبرام العبرانى"(١٤: ١٣). ورغم اعتقاد بعض الباحثين بأن هذه الرواية أسطورية فإنها تشتمل فى الواقع على مضمون تاريخى. وقد اختلفت الآراء فى أصل التسمية عبرى، فينسبها البعض إلى عابر الجد الأكبر لإبراهيم، ويرى آخرون أنها تنسب إلى عبور النهر أو البحر واختلف الباحثون حول اسم البحر أو النهر الذى تم عبوره. فيعتقد البعض أنه نهر الفرات الذى عبره إبراهيم عند بدء ارتحاله من أور إلى أرض كنعان. ويعتقد آخرون أن المقصود بالنهر نهر الأردن الذى عبره هؤلاء القادمون من أور إلى أرض كنعان أى الانتقال من الجهة الغربية إلى الجهة الشرقية للنهر. ورأى ثالث يرى أنها نسبة إلى الفعل עבר بمعنى تجول وانتقل وارتحل باعتبار أن ذلك العصر يتميز بكثرة الانتقال والارتحال والتجوال°.

ومهما يكن من أمر فإن الباحثين لم يتفقوا حول أصل التسمية عبرى ، لكن من هم العبريون ، وما علاقتهم ببنى إسرائيل . فطبقا لرواية العهد القديم والتى ترى أن تارح وأولاده الثلاثة ينحدرون من نسل عابر، وبالتالى فهم رؤساء أسباط بنى عابر، وأن أبناء لوط (عمون ومؤاب) وآرام وأبناء إبراهيم أى أسباط إسماعيل ومدين وإسحاق ويعقوب(إسرائيل) وعيسو (أدوم) تنسب إلى بنى عابر. غير أن ناحور أبو آرام استمر فى آرام النهرين، وأما إبراهيم ولوط فقد نزحا من أور الكلدانيين (أو حاران) إلى أرض الكنعانى الغربى (أى الأمورى) المجاورة للأردن والبحر الميت، أى تجولا من الشمال إلى الجنوب. ويعنى ذلك أن أبناء عابر وصلوا أرض كنعان ليس من الصحراء بل من بلاد الرافدين، وهذا يخالف الرأى الذى يرى أن الجزيرة العربية هى الموطن الأصلى لكل شعوب الشرق الأدنى القديم (بلاد الرافدين وسوريا وفلسطين) إلا إذا افترضنا أن الهجرة تمت من الجزيرة العربية إلى جنوب بلاد الرافدين ومنها انتقلت عبر الصحراء السورية إلى أرض كنعان، أى أنهم اختلطوا مع الآراميين فى سوريا، وفى هذه اللحظة نشأت علاقة بين العبريين وبين الآراميين تمثلت فى علاقة المصاهرة كما يشير العهد القديم فى غير موضع.

وإذا اتفقنا بأن العبريين إشارة إلى الذين هاجروا مع إبراهيم إلى أرض كنعان فإننا نفصل الآراميين عن العبريين لأنهم استمروا فى بلاد الرافدين ولم يهاجروا مع إبراهيم، لكن وجدت علاقة نسب ومصاهرة أى وجدت علاقة بين عنصرين يختلفان فى الأصل طبقا لرواية العهد القديم.

وبصورة عامة تعتبر شخصية إبراهيم نموذجا يرمز لوحدة العبريين، رغم انفصال أبناء لوط(مؤاب وعمون) واستقرارهم فى كيكر فى الأردن شرقا، أما إسحاق ويعقوب فيعتبران نموذجا لانقسام العبريين. وحدث الانقسام الأول زمن إبراهيم نفسه حيث انفصل إسحاق عن إسماعيل وبقية أبناء السرارى الذين تجولوا

بين سوريا ومصر، فاستقر إسماعيل فى الجزيرة العربيـــة، ثم حـــدث الانقســـام الثـــانى فى عصر يعقوب حيث انفصل يعقوب (فيما بعد إسرائيل) عـــن عيســـو(فيمـــا بعـــد أدوم) الذى عاش فى النقب فى أرض كنعان. فيعقوب (إسرائيل) يعتبر آخـــر رئـــيس لقبيلـــة العبريين وأدى هـــذا الانقســـام فى النهايـــة إلى بدايـــة تكـــوين إســـرائيل . فـــإبراهيم وأولاده ــ طبقا لهذه الرواية ــ عبريون بمـــا فى ذلـــك يعقـــوب، ومـــن لحظـــة تغـــيير الاسم يعقوب إلى إسرائيل صار كل من ينتمى إلى يعقـــوب يـــدعى إســـرائيليا ولـــيس عبريا، أى صارت التسمية إسرائيل هـــى المفضـــلة علـــى التســـمية عـــبرى ليعقـــوب وأبناءه عرقيا ودينيا وفيما بعـــد سياســـيا، وإن ظلـــت التســـمية عـــبرى مســـتخدمة، لكنها لم تكن بالمعنى القومى بل بالمعنى الاصـــطلاحى أى صـــفة لحيـــاة هـــؤلاء الـــذين اتسمت حياتهم بالتجوال والترحال. وعلى ذلك فكل إســـرائيلى عـــبرى، لكـــن لـــيس كل عبرى إسرائيلى، والدليل على ذلك أن الوجود العبرى مـــثلا فى مصـــر أقـــدم مـــن الوجود الإسرائيلى، فيرجع بداية الوجود العـــبرى فى مصـــر ـــ طبقـــا لروايـــة العهـــد القديم ـــ إلى عصر إبراهيم، كما يلاحظ وجود هجرات سامية (عربيـــة) مـــن المنطقـــة السورية الفلسطينية إلى مصر خاصة فى الفترات التى حـــدثت فيهـــا مجاعـــات، وكـــان العبريون من بين هؤلاء الذين قدموا إلى مصـــر، أمـــا بدايـــة الوجـــود الإســـرائيلى فى مصر فتعود إلى لحظة وجود يوسف ثم لحاق أخوته به فيما بعد.

يمكن أن نفهم مما سبق كيف تم التكوين العنصـــرى لـــبنى إســـرائيل . فالمعلومـــات السابقة هى عبارة عن مـــوروث شـــعبى، وهـــذا المـــوروث لا يعتمـــد علـــى تشـــعب شعوب فقط، بل يدل على فصل ســـكن الأســـباط المتقاربـــة قرابـــة إثنيـــة (عرقيـــة). ورغم أن هذه موروثات وردت لنا فى العهد القديم، فمـــن الضـــرورى فهمهـــا علـــى أنها تمثل بقايا لجزء من الحركات التاريخية التى كانـــت تـــتم فى منطقـــة الشـــرق الأدنى القديم وخاصة منطقة أرض كنعان. ومن المؤكد أنه خلال عصـــر التجـــوال والترحـــال وقبل استيلاء بنى إسرائيل علـــى أرض كنعـــان كانـــت قـــد اســـتوطنت واســـتقرت

جماعات عبرية أخرى فى أرض كنعان وما جاورها خاصة من المؤابيين والعمونيين والأدوميين، وكان لهذا التمركز قيمة وأهمية كبرى عندما بدأ تمركز بنى إسرائيل فى أرض كنعان.

يجب الإشارة أيضا إلى أن هذه الروايات الشعبية القديمة وصلت إلينا فى صورة متأخرة أى أنها لا تعكس الأحداث القديمة، بل إنها تعكس لنا الرؤية المتأخرة، أى لحظة التدوين، وليس لحظة وقوع الحدث. وتظهر هذه الروايات الشعبية كيفية التكوين العنصرى لإسرائيل حيث ذكرت ــ كما أوضحنا ــ كيفية انفصال العبريين عن بقية الجنس (العربى) السامى ككل، ثم انعزال (انفصال) جماعة بنى إسرائيل عن أسرة العبريين التى استوطنت فى كنعان. وقد انتشرت جماعة بنى إسرائيل وتشعبت وانقسمت هذه الجماعة ولم تستقر فى أرض كنعان مثل بقية العبريين، بل أقامت على أطراف كنعان. وتبرز العنصرية أيضا داخل أبناء إسرائيل حيث تصنفهم رواية العهد القديم طبقا للأم فتميز بين أبناء زوجتى يعقوب وبين أبناء جاريته. ولتأكيد التكوين العنصرى لجماعة بنى إسرائيل تلقى هؤلاء مجموعة من العهود والوعود دون غيرهم فركزت العهود ــ فى العهد القديم ــ على ذرية إبراهيم من إسحاق وإهمال إسماعيل وبقية أبناء السرارى رغم أن النص فى سفر التكوين ينص صراحة على أن العهد والوعد أعطى لابن إبراهيم الوحيد ــ إسماعيل ــ وهو ابنه بالفعل وإن كان ــ طبقا للعهد القديم ــ ابن جاريته، لكن طبقا لقوانين تلك الفترة فإن ابن الجارية كان يعامل معاملة أبناء الزوجة، وتكررت صيغة العهد العنصرى مع يعقوب دون عيسو.

والسؤال الآن هل أثرت حياة التجوال التى عاشها الآباء، وكذلك التركيب العنصرى لأسباط إسرائيل على وضعهم الثقافى؟ من المعلوم أن التكوين العنصرى لأسباط إسرائيل جعلهم يحافظون على هذه العنصرية عرقيا واجتماعيا، ويؤكد ذلك أن العبريين بصفة عامة والإسرائيليين منهم بصفة خاصة قد عاشوا بين الأمم

التى تجولوا فى أراضيها كوحدة عنصرية لها كيانها الخاص بها، لكنهم فى الوقت نفسه أخذوا عن تلك الشعوب الأساطير والروايات والقوانين والعقائد وأقوال الحكمة وغير ذلك. ورغم ذلك فقد حافظت هذه الجماعة على نفسها كوحدة عنصرية ثقافية علاوة على عنصريتها الإثنية. والدليل على عنصرية الثقافة الإسرائيلية أن معظم تراث هذه الجماعة رغم جذوره فى ثقافات شعوب الشرق الأدنى القديم فقد تم إضفاء الصبغة الإسرائيلية عليه. فالتراث الإسرائيلى القديم مكون فى الأساس من أربعة عناصر رئيسية هى العنصر العبرى القديم وهو مكون أصلا من العنصر العربى الآرامى، ثم العنصر البابلى ثم العنصر الكنعانى فالعنصر المصرى[٦].

ويبدو العنصر العبرى القديم (العربى والآرامى) فى صورة التنظيم القبلى المحدود حيث تسود فكرة أن كل سبط وكل شعب هو ابن أب، وأن هذه الفكرة لم تكن موجودة عند البابليين والمصريين واليونانيين، لكنها كانت سائدة عند عرب الجزيرة وعند الآراميين الذين هم عرب. وفى إسرائيل صار السبط يمثل صورة الحياة القديمة وهو ليس إسرائيليا خالصا بل إرث عبرى قديم مأخوذ عن العرب والآراميين . أما التأثير البابلى فيبدو بوضوح فى مواضع متعددة فى العهد القديم فمعظم أدب العهد القديم مستمد من البيئة البابلية ولا يمكن فهم أدب العهد القديم إلا من خلال تأصيله والعودة إلى الأدب البابلى سواء فيما يتعلق بروايات الخلق والطوفان، أو ما يرتبط بالأحكام والقوانين، أو ما يرتبط بأدب الحكمة وتعود التأثيرات البابلية فى الثقافة العبرية إلى عصر وجود إبراهيم فى أور الكلدانيين، لكنها وصلت إلى ذروتها زمن السبى البابلى.

أما فى أرض كنعان فقد حدث تغيير فى لغة العبريين، فتحولت لهجتهم الآرامية أو القريبة من الآرامية إلى لهجة كنعان (إشعيا ١٩: ١٨). وقد حدث هذا الانفصال اللغوى فى مرحلة مبكرة ، وربما قبل انفصال أسباط إسرائيل عن

العمونيين والمؤابيين والأدوميين ، ومــع التحــول اللغــوى قبلــت أســباط إســرائيل الكثير من النظم الثقافية والدينية الكنعانية فأخذوا عن الكنعانيين بعــض الأسمــاء الــتى تدل على الإلوهيــة مثــل עליון , בעל , אדון ، كــذلك نلاحــظ تــأثير أســطورة دانيل الكنعانية التى وجدت فى كتابات رأس الشمرا على قصــة دانيــال البــار الــذى ذكر سويا مع أيــوب ونــوح فى حزقيــال (١٤: ١٤، ٢٠) . ولاننســى أن أســباط إسرائيل قد أخذت الأفود والترافيم بنفس وظائفهــا الــتى وجــدت فى كتابــات رأس الشمرا، كما أخذوا عن الكنعانيين الكثير من الطقوس الدينية، وشــعر العهــد القــديم متأثر إلى حد كبير بالشعر الكنعانى كما يظهر ذلك كتابات أوجريت.

أما الطبقة الأخيرة فى الثقافة الإسرائيلية هــى الثقافــة المصــرية، فيظهــر الطــابع المصرى المحلى فى الروايات المرتبطة بيوسف، وأسماء بعض الكهنــة هــى أسمــاء مصــرية مثل فينحاس وحور وحنمئيل وفشحور، والتأثير المصــرى واضــح فى بعــض كتابــات الحكمة، وعلى كل فإن التأثير المصرى أقل بكــثير مــن التــأثير البــابلى والكنعــانى. فمثلا لم نجد فى العهد القديم الإشارة إلى اسم أى إله مصرى، وعقيــدة التحنــيط الــتى تعتبر من أبرز ما برع فيه المصريون، وعقيدة البعث بعد الموت لا نجــد لهــا أى أثــر فى أسفار التوراة.

إذن لا يمكن القبول بأى حال من الأحوال بوجود ثقافــة إســرائيلية خالصــة بــل هناك تراث شرق أدنى صبغ صبغة إسرائيلية، كمــا لا يمكــن قبــول وجــود جــنس إسرائيلى خالص، فإبراهيم تزوج من الآراميين وأوصى ابنــه إســحاق أن يتــزوج مــن بنات خاله، وكذلك فعل إسحاق مع يعقوب. ولا يمكــن إنكــار أنهــم تزوجــوا مــن بقية الشعوب التى تجولوا فى أراضيها، فقضية ثقافة إسرائيلية خالصــة أو قضــية عــرق إسرائيلى خالص لا وجود لها فى ضوء ما تم الإشارة إليه.

وفيما يتعلق بالوضع الدينى فى عصر الآباء فيمكن القول بأن الآباء عرفوا عقيدة التوحيد، وأن إبراهيم هو مؤسس عقيدة التوحيد، وأن الآباء بناءً على ذلك كانوا جميعا موحدين، لكنهم لم يبشروا بعقيدة التوحيد بل موحدين بفطرقم وطبيعتهم، فالاسم يهوه لم يكن معروفا بالاسم زمن الآباء وعرف بالاسم لأول مرة فى سفر الخروج (٣: ١٣ـ ١٥، ٦: ٢ـ٣). وزمن الآباء عرف الإله الواحد بمسميات متعددة منها אל שדי, אל עליון, אל עולם, אל ראי, פחד יעקוב. ويوجد فى روايات الآباء ما يؤكد أن إبراهيم على وجه التحديد عرف التوحيد الخالص فنجده يدعو الإله بأنه هو إله السماء والأرض (٢٤: ٣، ٧) وهو الإله العلى مالك السموات والأرض (٢٤: ١٤). وقد سار الآباء جميعهم أمام هذا الإله (١٧: ١؛ ٢٤: ٤٠؛ ٤٨: ١٥).

وقد اعتمدت عقيدة الآباء بصورة عامة على العلاقة المباشرة بين الآباء وبين الإله فنجد الإشارة إلى الصلوات والتضرعات من الآباء للإله، (التكوين ٢٠: ٧؛ ٢٤: ١٢ـ ١٤)، كما أن تقديم القرابين كان يتم بدون واسطة، أى أن الآباء هم أنفسهم الذين كانوا يقدمون القرابين (١٢: ٨ ـ ٩؛١٣: ١٨؛ ٢٢: ١ـ ١٣)، وعرف الآباء تقديم العشور (١٤: ٢٠؛ ٢٨: ٢٢)، والنذر التعبدى (٢٨: ٢٠) وذبائح السلامة (٢٢: ٢ـ ١٣؛ ٣١: ٥٤).

وذكرت فى روايات الآباء أنماط متنوعة من العهود الدينية والدينية، وتنوعت شواهد هذه العهود فمنها ما هو مادى، ومنها ما هو معنوى(١٥: ٨ـ١٧؛ ٢١: ٢٨ـ ٣٠؛ ٣١: ٤٤ـ ٥٢). ومن العهود التى حصل الآباء عليها عهد الختان وعهد زيادة النسل وامتلاك أرض كنعان، وكان سبب هذه العهود فضيلة إبراهيم وطاعته الرب وحفظ وصاياه وأوامره وقوانينه وأحكامه وتعاليمه(٢٦: ٥).

ويمكن القول بأن التوحيد المذكور فى عصر الآباء هو توحيد عنصرى، إذا ربطنا هذا التوحيد بالعصر السابق على عصر الآباء، فطبقا لرواية سفر التكوين يلاحظ أن آدم وقايين وهابيل وأنوش وحنوخ ونوح وذريته لم ترد أى إشارة تشير إلى تعدد الإله بل يفهم من سياق الروايات أن هؤلاء جميعا عرفوا التوحيد. ظهر هذا الإله للآباء فى صور مختلفة، علاوة على ذلك فإن الروايات قبل عصر الآباء لا يوجد بها أى ذكر للوثنية، لكن هناك إشارات بعيدة لذلك يمكن فهمها من جيل انقسام الأمم والشعوب أو زيادة الفساد والشر على الأرض زمن نوح، لكن عبادة الإله الواحد بداية من الإصحاح الثانى عشر صارت أرث إبراهيم وذريته، أما فى بقية العالم فلا يوجد أى ذكر لعقيدة التوحيد وإن ذكرت شخصيات عرفت التوحيد فتشير إليهم التوراة بأنهم من أبرار العالم وحكمائهم مثل أيوب وإليفاز وملكى صادوق وصوفر وبلدد وإلياهو. فرؤية أن الآباء كانوا موحدين مرتبط بالرؤية العالمية للتاريخ السابق على إبراهيم، ومع تخصيص التاريخ بدأ تخصيص التوحيد ليصبح قاصرا على إبراهيم ونسله من إسحاق دون إسماعيل وأبناء بقية السرارى. ويؤكد أن التوحيد اقتصر على إبراهيم ونسله أن الآباء لم يرد أنهم قد حاربوا الوثنية أو أنهم قاموا بنشر عقيدة التوحيد بين عشائرهم، فالتوحيد هنا توحيد فردى وليس توحيدا عاما. والآباء فى التوراة لم يشغلوا وظيفة النبوة رغم أن الرب ظهر لهم فى صور متعددة، وبما أنهم لم يشغلوا وظيفة النبوة فإنه لم يكن مطلوبا منهم نشر عقيدة التوحيد.

وبما أن شخصيات الآباء (إبراهيم وإسحاق ويعقوب وأبناء يعقوب) ذكرت فى التوراة وفى القرآن فلا يمكننا انهاء الحديث عنهم دون أن نوضح أهم الاختلافات بين فهم العهد القديم لهذه الشخصيات وبين الفهم القرآنى. فرغم تأكيد كل من العهد القديم والقرآن على أن شخصيات إبراهيم وإسحاق (وإسماعيل فى القرآن) ويعقوب وأبناء يعقوب شخصيات موحدة، وأنها عبدت

الإله الواحد غير أن العهد القديم يؤكد أن هذه الشخصيات شخصيات موحدة اختياريا ولم تكلف بنشر التوحيد، ولذلك فهى شخصيات قيادية أى لها وظيفة سياسية اجتماعية أكثر منها وظيفة دينية. ونتج عن هذا التكوين العنصرى لإسرائيل فيما بعد، كما اعتبر تجوال هذه الشخصيات رمزا لتجوال جماعة بنى إسرائيل وعودتهم إلى الأرض الموعودة. وهذا على عكس التصور القرآنى الذى ينظر إلى هذه الشخصيات بأنها شخصيات موحدة لكن من خلال السلطان والقوة الإلهية بعد تردد كبير من إبراهيم حتى وصل إلى التوحيد الخالص، كما نظر إليهم فى القرآن الكريم على أنهم شخصيات نبوية لهم رسالة أساسية هى نشر عقيدة التوحيد بالإضافة إلى الوظيفة الاجتماعية، وبذلك يمكن فهم تجوالهم واغترابهم على أنه دعوة إلى التوحيد. ولا يظهر القرآن أى عنصرية لهذه الشخصيات ، ولم يفرق بين أبناء إبراهيم (إسماعيل وإسحاق) أو أبناء يعقوب فلكل له ميراث النبوة (إسحاق ويعقوب) .

ثانيا ــ الوجود الإسرائيلى فى مصر

ذكرنا أن الوجود العبرى فى مصر يعود إلى موجات الهجرات العربية(السامية) التى انطلقت من أرض كنعان بسبب القحط والمجاعة أو لأسباب تجارية واقتصادية. وقد استقر بعض هؤلاء المهاجرين فى أرض مصر. ويرجع تاريخ هذه الهجرات إلى الألف الثالث قبل الميلاد . وقد انضم إلى أولئك الذين استقروا فى أرض مصر مهاجرون جدد خلال الألف الثانى قبل الميلاد. فتذكر التوراة هبوط أبناء يعقوب إلى مصر، وكان السبب ــ طبقا لرواية التوراة ــ اقتصاديا وهو تدهور الأوضاع الاقتصادية بسبب القحط والمجاعة التى سادت أرض كنعان:" فلما رأى يعقوب أنه يوجد قمح فى مصر قال يعقوب لبنيه لماذا تنظرون بعضكم إلى بعض... انزلوا إلى هناك واشتروا لنا من هناك لنحيا ولا نموت... فأتى بنو إسرائيل ليشتروا بين بين

الذين أتو. لأن الجوع كان فى أرض كنعان"(التكوين ٤٢: ١ــ٦). وعلى ذلك فإن الوجود العبرى فى مصر أقدم من الوجود الإسرائيلى، وتجدر الإشارة إلى أننا سوف نستخدم هنا مصطلح إسرائيل بالمعنى العرقى الإثنى وليس بالمعنى السياسى، لأن إسرائيل كمصطلح سياسى لم يتم استخدامه إلا بعد انقسام مملكة داوود وسليمان، ويسود الاعتقاد أن هذه الجماعة ــ حسب رؤيتها ــ حاولت المحافظة على النقاء العرقى، وقد أثبتنا زيف هذا الادعاء، ورغم ذلك فسنستخدم المصطلح إسرائيل حيث توجد قواسم اجتماعية ولغوية ودينية مشتركة بين أفراد هذه الجماعة.

وبناءً على ما سبق يمكن القول بأن الاسم عبرى تضاءل منذ عصر يوسف أو منذ انضمام إخوته إليه فى أرض مصر. وتشير التوراة إلى أن أبناء إسرائيل استقروا فى أرض جوشن قرب أفاريس عاصمة الهكسوس. وقد وصل يوسف فى بلاط فرعون مصر حتى عين وزيرا (٤١: ٤٠ــ ٤٥؛ ٤٥: ٨) .

يربط بعض الباحثين فى العصر الحديث بين استيطان بنى إسرائيل خاصة والعبريين عامة فى أرض مصر بسلطان الهكسوس(١٧٢٠ــ ١٥٧٠ قبل الميلاد) والتى كانت عاصمتهم صوعن (أفاريس) فى الدلتا فى أرض جاسان. وقد استعان الهكسوس بحكام ساميين لإدارة شؤون المملكة، واستدل أصحاب هذا الرأى بوجود بعض الأسماء مثل יעקבהר, ענתהר, חין וחמודי[7]. وقد ربط بعض الكتاب الهللينيين مثل منتو بين احتلال الهكسوس لمصر وخروجهم منها بظهور بنى إسرائيل وخروجهم منها، وقد رفض هذا الرأى من قبل الكثير من الباحثين[٨]. مما لا شك فيه أنه كانت توجد علاقات تجارية بين سكان كنعان وبين المصريين، ويفهم ذلك من خلال الطريق الذى وجد منقوشا على قبر أبناء حسن فى مصر الوسطى، ومن الإشارات الواردة فى التوراة التى تشير إلى وجود مجاعات فى أرض كنعان أو من خلال العبيد الآسيويين فى مصر. ويدل على ظاهرة انتشار تجارة

العبيد ما ورد فى وثائق اللعنة حيث تم العثور على قائمة أسماء العبيد الذين كانوا فى حوزة أمير مصرى من القرن الثامن عشر قبل الميلاد وعرف العديد منهم بأسماء سامية غربية، وكان ذلك قبل عصر الهكسوس[٩].

وبما أن الإسرائيليين هم أحد القبائل العبرية القديمة فقد حافظوا على الطابع الاجتماعى المميز للقبائل العبرية وهو عدم الاندماج مع المجتمعات التى يعيشون فيها، لذلك استقرت هذه الجماعة فى مصر دون أن تختلط مع السكان الأصليين ـ وذلك حسب رواية العهد القديم ـ لكنهم بلا شك اندمجوا مع المهاجرين القدامى، وحاولوا المحافظة على الرابطة القومية معهم.

وتشير التوراة إلى قضية استعباد بنى إسرائيل فى مصر ويعتقد البعض أن ذلك كان فى عصر الملك تحتمس الثالث (١٥٠٠ قبل الميلاد) ويعتقد أنه حكم أيضا أرض كنعان[١٠]. ويرى آخرون أن قضية الاستعباد هذه كانت فى عصر رعمسيس الثانى (١٢٣٤ قبل الميلاد) [١١]. وقضية الاستعباد هذه لا نجد لها ذكر فى المصادر المصرية القديمة . وهذا يجعلنا نبحث عن أسباب الاستعباد فى ضوء المصدر الذى ذكرت فيه . فالتوراة هى مصدر دينى فى المقام الأول وليست مصدرا للتاريخ لذلك يجب فهم الاستعباد هنا على أنه استعباد أو اضطهاد دينى وليس استعبادا بالمعنى السياسى، خاصة أننا نعلم أن الدين هو أحد دعائم القومية (العبرية والإسرائيلية واليهودية بمراحلها المختلفة)، فالاضطهاد أو الاستعباد هنا لا يمكن فهمه إلا فى داخل سياق دينى قومى. وهنا يمكن القول أن ما تقدمه التوراة من أسباب اقتصادية للهبوط إلى مصر زمن يعقوب لم يكن هو السبب الرئيسى بل هناك سبب آخر، ونقصد بذلك نشر عقيدة التوحيد، التى كانت سببا أيضا فى ظلم بنى إسرائيل وأبناء جلدتهم فى مصر.

ثالثا ــ خروج بنى إسرائيل من مصر

تختلف هذه المرحلة عن المرحلتين السابقتين ــ أى مرحلة الآباء ومرحلة الوجود الإسرائيلى فى مصر ــ لأن فى هذه المرحلة تبدأ اللحظة التاريخية التى يبدأ بها تاريخ بنى إسرائيل كجماعة (كشعب حسب تعبير العهد القديم)، فبنو إسرائيل لم يكونوا جماعة مستقلة لها تاريخ إلا مع حادثة الخروج من مصر والتاريخ السابق هو تاريخ أفراد وليس تاريخ جماعة ولذلك نقرأ مثلا عن أحد الفراعنة بأنه " لم يكن يعرف يوسف ". ويعتقد أن هذا الفرعون هو تحتمس الثالث (١٥٠٠ قبل الميلاد) أو رعمسيس الثانى (١٣٠١ــ ١٢٣٤قبل الميلاد). وكما اختلف الباحثون فى الفرعون الذى فى عصره وجد بنو إسرائيل فى مصر، فقد اختلفوا كذلك فى الفرعون الذى فى عصره خرج بنو إسرائيل من مصر. فيعتقد البعض أنه حدث فى عصر أمنوفيس الرابع ١٣٨٠ قبل الميلاد[١٢]، ويعتقد آخرون أنه كان فى عصر مرنبتاح ابن رعمسيس ١٢٣٥ ــ ١٢١٥ قبل الميلاد[١٣] . ويعتقدن أن الخروج حدث فى فترة كان الضعف المصرى قد وصل إلى ذروته وبدأ تغلغل اللوبيين وتزايدت الثورات فى آسيا. وقد استغل بنو إسرائيل ذلك فأزالوا الاستعباد عنهم وخرجوا إلى الصحراء لينضموا إلى القبائل العبرية الأخرى المتجولة فى هذه المنطقة الصحراوية، ومنها واصلوا المسيرة إلى أرض كنعان. وخلال هذه الرحلة صادف هؤلاء الخارجون بعض الصعاب فى سيناء وجوار قادش ــ برنيا . وفى خلال هذه المرحلة ظهر الرب لبنى إسرائيل ومنحهم الوصايا العشر، التى تعتبر الأساس لديانة بنى إسرائيل، وأساس التنظيم الدينى والأخلاقى والاجتماعى لهذه الجماعة، كما جدد الرب العهد بينه وبين هذه الجماعة فبدلا من الحديث عن العهد الذى كان للآباء أصبح منذ عصر موسى الحديث عن عهد جماعة الرب. وتزوج موسى من ابنة كاهن مدين ، وتزاوج غالبا مع المدينيين والقينيين وسائر سكان بادية شمالى الجزيرة العربية . وهذا يؤكد ما ذكرناه من قبل

بأن الحديث لم يعد عن أفراد كما كان فى روايات الآباء، بل صار الحديث عن جماعة قومية، ويؤكد كذلك زيف نقاء الجنس الإسرائيلى.

رابعا ــ استيلاء بنى إسرائيل على كنعان

طبقا لرواية العهد القديم توفى موسى قبل دخول بنى إسرائيل إلى كنعان، وقد تولى القيادة بعده يشوع. ويصور سفر يشوع عملية الاستيلاء على أرض كنعان على أنه تم عبر سلسلة من الحملات وجهت إلى وسط المنطقة وشمالها وجنوبها . ومن أنصار هذا الرأى فى العصر الحديث وليم أولبرايت وتلاميذه حيث ركز أولبرايت جل اهتمامه على المكتشافات الأثرية الحديثة لتدعيم تراث العهد القديم لإثبات وجود حملة عسكرية المفترض أنها قضت على المجتمعات السكانية للفلسطينيين فى تجمعاتهم المدنية[١٤]. وقدم تجنب بنو إسرائيل ممالك أدوم وعمون ومؤاب، وكانت هذه الممالك تقع إلى جنوبى البحر الميت وشرقيه وشماليه الشرقى ولم يستطيعوا إخضاعها. ولم يستطع يشوع أيضا التقدم تجاه المدن الساحلية التى كانت تحت سيطرة الفلسطينيين، كما تجنب كذلك المدن المحصنة ومنها مدينة أورشليم. وكانت مدينة أريحا أولى المدن الكنعانية التى احتلها بنو إسرائيل، ورافق الاستيلاء على هذه المدينة أعمالا وحشية وبربرية تمثلت فى قتل كل ما فى المدينة من نفس حية (يشوع ٦: ٢١ ــ ٢٤). ونرى أن هذه الصورة الوحشية اتخذتها الحركة الصهيونية نموذجا لها فى أبادة سكان فلسطين فى العصر الحديث.

رغم هذه الصورة الوحشية البربرية التى يقدمها لنا سفر يشوع، يعتقد بعض الباحثين أن استيلاء بنى إسرائيل على أرض كنعان تم عبر الطرق السلمية فيما يعرف باسم التغلغل السلمى لأرض كنعان، ومن أنصار هذا الرأى ألبرخت آلت ومارتن نوت وفيبرت[١٥]. وربما يعتمد أصحاب هذا الرأى على تبرير عدم مقدرة بنى إسرائيل الاستيلاء على كثير المدن سواء المدن الساحلية أو الداخلية. ويدل

على عدم قدرة يشوع الاستيلاء على جميع المدن الكنعانية حيث توجد قائمة بأسماء المدن التى يستطع يشوع إخضاعها لسيطرته منها يبوس وجازر وبيت شان وغيرها (١٥: ٦٣ ؛ ١٦: ١٠؛ ١٧: ١١ــ١٢؛القضاة ١: ٢ــ ٣؛ ٢: ٢١ــ ٣: ٦ ؛ صموئيل الثانى ٥: ٥؛ الملوك الأول ٩: ٢٠،١٦ــ٢١) .

ولا يمكن أن نغفل هنا أن سفر يشوع يشير إلى أن تقسيم الأراضى على القبائل الإحدى عشر باستثناء اللاويين الذين كان إرثهم موزع بين جميع القبائل بسبب وظيفتهم الدينية . هذا الأسلوب فى تقسيم الأرض وتوزيعها اعتبر نموذجا يحتذى فى العصر الحديث، وذلك من خلال إنشاء بؤر استيطانية متعددة بهدف تغيير البنية السكانية، كما حدث فى عصر يشوع.

وفى ضوء ما سبق يمكن القول بأن الاستيلاء على كنعان تم بأسلوبين متوازيين، الأول ــ هو الأسلوب العسكرى الوحشى البربرى عندما وجد هؤلاء القادمون الجدد مقاومة من السكان الأصليين، والثانى ــ هو أسلوب التغلغل السلمى، ويمكن أن نؤكد أن هذا الأسلوب تم فى المناطق التى كانت قد استقرت فيها جماعات عبرية وربما إسرائيلية لم تشارك فى حركة الخروج إلى مصر سواء زمن إبراهيم أو زمن يعقوب. وكما يقول موسكاتى " فقد اكتمل الامتزاج بين هؤلاء العبريين ــ ونضيف والإسرائيليين ــ والقادمين الجدد، ولم يلبث أن زال كل أثر لما بينهما من فروق، أما الامتزاج مع الكنعانيين فكان تدريجيا واستمر بضعة قرون"[١٦]. وبدأ هؤلاء القادمون الجدد يتزايدون بالتزاوج مع العناصر القديمة ــ عبرية أو إسرائيلية ــ ، ورغم ذلك استمرت المعارك مستمرة بين سكان الأرض الأصليين وهؤلاء القادمون الجدد .

وبصورة عامة فإن هاتين الرؤيتين وتدعيمهما فى العصر الحديث ارتبط بالأحداث السياسية لقيام دولة إسرائيل فرؤية آلت ومدرسته تعتمد على نشوء

الدولة القومية حيث إن السمة الرئيسية لنظريته هى وجود مجموعات ذات شأن من البشر تبحث عن وطن قومى لها ويجب أن يفهم ذلك فى سياق التطورات التى كانت سائدة فى فلسطين وقت قيام آلت بأبحاثه . كذلك يمكن فهم رؤية أولبرايت فى سياق المفاهيم العصرية للتطورات التى حدثت فى فلسطين أثناء قيامه بأبحاثه[١٧].
وإن اختلف آلت عن أولبرايت إلا أنهما اشتركا سويا فى اختلاق تاريخ إسرائيل القديمة ليكون حافزا لقيام إسرائيل الحديثة، وكما حدث عندهما من إسكات للتاريخ الفلسطينى القديم، حاولت الصهيونية إسكات التاريخ الفلسطينى الحديث أيضا.

فالصراع بين بنى إسرائيل المحتلين وسكان فلسطين الأصليين لم يتم حسمه فى عصر يشوع " وأما اليبوسيون الساكنون فى أورشليم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم فسكن اليبوسيون مع بنى يهوذا فى أورشليم إلى هذا اليوم " (يشوع ١٥ : ٦٢). وهذا الاقتباس لا يشير فقط إلى أن يشوع لم يستطع الاستيلاء على أورشليم، بل يشير أيضا إلى استمرار وجود الكنعانيين فى أورشليم طوال العصور التاريخية، فليس لدينا أى إشارة تشير إلى مغادرة السكان الأصليين للمدينة كما حدث لليهود من تقتيل وتشريد وسبى.

انتهى عصر يشوع دون إتمام بنى إسرائيل احتلال أرض كنعان، بل إنهم لم يستطيعوا الانتصار على سكان فلسطين الأصليين فاضطروا للسكن بينهم:"سكنوا فى وسط الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين، واتخذوا بناتهم لأنفسهم نساء وأعطوا بناتهم لبنيهم وعبدوا آلهتهم" (قضاة ٣: ٥ـــ ٦). وهذا الاقتباس يشير إلى مدى الخطورة التى تعرض لها بنو إسرائيل، حيث صاروا مهددين بخطر الفناء والذوبان فى شعوب كنعان الأصليين، واضطروا فى كثير من الأحيان إلى إخلاء بعض المدن التى كانوا قد استولوا عليها.ولما ضاق بهم الأمر بسبب نكثهم عهد الرب الذى كان قد جدده يشوع قبل موته أقام لهم من بينهم

قضاة ليخلصوهم من أعدائهم سكان الأرض الأصليين . ولهذا السبب سمى هذا العصر باسم عصر القضاة وقد استمر هذا العصر من بعد موت يشوع حتى تأسيس الملكية على يد شاؤل(١٠٢٠) قبل الميلاد، أى حوالى قرنين من الزمان. وكان هذا العصر عصر اضطراب لبنى إسرائيل على المستويين الدينى والسياسى .

فدينيا وصف عصر القضاة بأنه عصر الوثنية الأولى بعد موت موسى عليه السلام ، فكثيرا ما يصف سفر القضاة ابتعاد بنى إسرائيل عن عبادة الرب وعبادهم الآلهة الأجنبية ، وقد دخلت عبادة يهوه فى صراع مع عبادة الإله بعل الكنعانى ،وكثيرا ما انتصرت عبادة بعل على عبادة يهوه . وخلال عصر القضاة تمكن الكنعانيون والفلسطينيون سكان فلسطين الأصليين من إخضاع بنى إسرائيل لسلطانهم فـ"يابين" ملك كنعان ضايقهم فى حاصور عشرين سنة كما استعبدهم الفلسطينيون وبنو عمون ثمان عشرة سنة، وفى أواخر عصر القضاة أوقع الفلسطينيون بنى إسرائيل هزائم شديدة واستولوا على تابوت العهد، كما خضع بنو إسرائيل لحكم الفلسطينيين أربعين سنة حتى ظهر "شمشون" وحاربهم. وبالإضافة إلى الكنعانيين والفلسطينيين أيضا كانت هناك حروب بين العمونيين وبنى إسرائيل فحاربهم بنو عمون والعمالقة واستولوا على مدينة أريحا . كذلك ثار المؤابيون وحاربوا ضد بنى إسرائيل فطبقا لرواية سفر القضاة(٣: ١٢) حاول "عجلون" ملك مؤاب الاستيلاء ليس فقط على أرض السهل بل أيضا على المناطق القريبة من عبر الأردن الغربى وبخاصة منطقتى بنيامين وصحراء يهوذا كما جمع "عجلون" ملك مؤاب بنى عمون وعماليق وضربوا إسرائيل واحتلوا أريحا، ثم تم خلاصهم فى عصر القاضى إيهود. وقبل هؤلاء جميعا كان كوشان رشتعايم ملك آرام النهرين أول من أخضعهم لسلطانه ثمان سنوات .

من هذا العرض يتضح مدى الاضطراب الذى عاشته منطقة فلسطين، وكان بنو إسرائيل السبب الرئيسى فى هذه الفوضى لأنهم حاولوا الاستيلاء على أرض

ليست لهم، فاستمرت مقاومة سكان فلسطين الأصليين من اليبوسيين والكنعانيين والفلسطينيين والأدوميين والعمونيين والمؤابيين والآراميين، وهذا يعنى أن بنى إسرائيل كانوا عنصرا غير مرغوب فيه.

الفصل الثالث

تاريخ بنى إسرائيل منذ نهاية عصر القضاة

حتى انقسام مملكة دواد وسليمان

أولا ــ نهاية عصر القضاة وتأسيس الملكية على يد شاؤول

يعتبر صموئيل طبقا لرواية العهد القديم آخر قضاة بنى إسرائيل. وينتمى صموئيل إلى قبيلة أفرايم التى كانت تسكن الرامة[١]، وكان صموئيل يخدم الرب أمام عالى الكاهن فى شيلوة[٢]، كما كان أصغر خادم يخدم فى بيت الرب[٣]. وبعد أن مات عالى الكاهن وأبنائه بعد انتصار الفلسطينيين على بنى إسرائيل قرب أفيق ودمار بيت الرب فى شيلوه عاد صموئيل إلى بيت آبائه[٤]، وأصبحت الفترة التاريخية بين دمار شيلوه والحرب الأولى ضد الفلسطينيين بقيادة شاؤول فترة نشاطات واسعة لصموئيل النبى والقاضى[٥]. وبحكم وظيفة صموئيل الدينية والدنيوية حاول إبعاء بنى إسرائيل من وراء عبادة البعل والعشتروت والعودة إلى اله إسرائيل. كانت عبادة البعل والعشتروت منتشرة بين بنى إسرائيل طوال عصر القضاة فيما عرف باسم عصر الوثنية الأول بعد موسى. وسهل شيوخ بنى إسرائيل مهمة صموئيل الدينية، ومحاولة تنقية العقيدة لأنهم كانوا يميلون إلى نفس الاتجاه[٦]. وكانت المصفاه المدينة الرئيسية لنشاط صموئيل وأيضا مكان عبادة الرب.[٧]

وقد أثار صموئيل روح الحماس القومى والدينى بين أسباط إسرائيل[٨]. ففى عصره حضر سبط يهوذا وسبط شمعون الخاضع له ودخلوا فى حلف مع بنى إسرائيل[٩]، وبانتصار صموئيل على الفلسطينيين وتعقبهم حتى بيت كار صار قدرة عسكرية [١٠]وهذا الانتصار على الفلسطينيين ــ طبقا لرواية العهد القديم

ـ استعاد كل المدن التى كان قد احتلها الفلسطينيون من قبل (صموئيل الأول ٧ : ١٤).

لم يستسلم الفلسطينيون سكان الأرض الأصليين وزادوا من ضغوطهم على الإسرائيليين وقاموا بالاستيلاء على عدد من المدن الخاضعة لبنى إسرائيل[١١]، كما توغل ناحاش ملك العمونيين فى أقليم نصف سبط منسى وبنود جاد[١٢] . وفى ظل تزايد ضغوط شعوب أرض كنعان الأصليين قام شيوخ إسرائيل وطلبوا من صموئيل أن يملك عليهم ملكا مثل بقية الشعوب المجاورة . غير أن صموئيل لم يكن قانعا لهذا المطلب ووضح لهم مساوئ حكمهم تحت قيادة ملك[١٣] ، ومع ذلك استجاب لهم وكانت استجابته بأمر الرب (صموئيل الأول ٨ : ٢٢) وعين شاؤول ملكا .

بتولى شاؤول الملكية ١٠٢٥ ق.م[١٤] تبدأ مرحلة جديدة من مراحل تاريخ بنى إسرائيل القديم ، نقصد بذلك تاريخ الملكية فى إسرائيل . وكما كان سائدا فى شعوب الشرق الأدنى القديم فقد مسح صموئيل شاؤول للملكية، ومنذ لحظة التمسيح صار شاؤول ملكا (صموئيل الأول ١٠ : ١، ١١ : ١٤-١٥) . ويرى م. تسفى" أن المادة المعطاة فى سفر صموئيل بشأن تأسيس الملكية" جاءت فى خمس مراحل هى[١٥] :

١) اجتماع الشعب فى الرامة : صموئيل الأول ٨ : ٤ – ٢٢.
٢) مسح شاؤول بن قيس : صموئيل الأول ٩ : ١ – ١٠.
٣) اجتماع الشعب فى المصفاة : صموئيل الأول ١٠ : ١٧– ٢٧.
٤) حرب يابش جلعاد : صموئيل الأول ١١ : ١– ١١.
٥) اجتماع الشعب فى الجلجال : صموئيل الأول ١١ : ١٤-١٥.

والملاحظ من هذه المراحل أنها تتدرج من بداية طلب الجماعة بأن يصبح لهم ملكا إلى أن تم اختيار الملك . ومما لا شك فيه فإن التدرج كان مطلوبا خلال هذه

المرحلة التاريخية من تاريخ بنى إسرائيل القديم، ليناسب ذلك الانتقال من الحكم القبلى إلى الحكم الملكى.

وبعد أن تولى شاؤول الحكم بدأ الصراع بين الفلسطينيين أحد أهم سكان البلاد الأصليين وبين بنى إسرائيل الوافدين الجدد . لذلك كان أول عمل قام به شاؤول القضاء على الحامية الفلسطينية فى جبعة[١٦] ، تبع ذلك أول حرب بين الفلسطينيين وبنى إسرائيل ، وبدأ هذه الحرب يوناثان بن شاؤول، واتبع فيها أسلوب التكتيك والهجوم المفاجئ كما كان فى أيام القضاة[١٧] . وقام شاؤول بحروب متتالية ضد الفلسطينيين حتى استطاع إخراج الحامية الفلسطينية من بيامين وأفرايم[١٨].

أما حرب شاؤول الأخرى فكانت ضد العماليق وهم أحد شعوب فلسطين الأصليين، لذلك اضطهدوا دائما أبدا بنى إسرائيل، وازداد اضطهاد العماليق لبنى إسرائيل فى عهد شاؤول خاصة سبط يهوذا[١٩]، وحدثت حرب بين العماليق وبين إسرائيل استطاع شاؤول أن يهزم العماليق كما أنه سبى أجاج حيا [٢٠]، وأثناء هجوم شاؤول على العماليق استطاع أن يكسب قلوب سكان الحدود (يهوذا) الذين عانوا كثيراً من العماليق لذلك قطعوا عهدا مع شاؤول[٢١].

وفيما يتعلق بوضع العلاقات بين بنى إسرائيل والفلسطينيين أحد أهم عناصر سكان فلسطين الأصليين فقد استمرت الحروب ـ كما ذكرنا ـ بينهما طوال فترة حكم شاؤول، وأبرز هذه الحروب تلك المعركة التى كان قائدها جليات الفلسطينى وكانت هذه الحرب قرب بيت لحم[٢٢]. ولم يستطع أحد من جيش شاؤول أن يبارز جليات الذى كان يظهر متفاخراً بقوته. وذات مرة ذهب داوود بن يس ليعرف سلامة أخوته فى الحرب؛ فرأى هذا الطاغية يتفاخر بقوته فطلب من الملك أن يتركه يبارز جليات، ومع إصرار داوود استجاب الملك له وتركه يبارز هذا الطاغية وهزمه داوود وقتله .وكان من نتائج قتل داوود لجليات :

هروب الفسطينيين إلى مدنهم الحصينة وتعقبهم جيش إسرائيل حتى مدنهم[٢٣]، وتم تعيين داوود قائدا من قبل شاؤول على الجيش، كما جعله حامل سلاح[٢٤]، وزوجه بنته ميكال، وبذلك كانت بداية تعرف الملك شاؤول بداوود، ومنذ تلك اللحظة صار حب إسرائيل لداوود أكثر من شاؤول "فأجابت النساء اللاعبات وقلن ضرب شاؤول ألوفه ودواد ربواته"[٢٥]. وتسبب هذا الحب فى إثارة الملك شاؤول ضد داوود ، وصار داوود العدو الشخصى للملك شاؤول، وأدى ذلك إلى الصراع بينهما . وحاول داوود تجنب هذا الصراع وذلك بالتنقل من مكان إلى آخر حتى انتقل إلى فلسطين وطلب حماية أخيش ملك جت[٢٦] الذى عينه على صقلغ[٢٧].

وقد هدف أخيش من تولية داوود على صقلغ حماية حدود البلاد من العماليق[٢٨] ، ورغم أن دواد كان خاضعا لأخيش ملك جت إلا أنه أقام علاقة قوية مع شيوخ يهوذا والمنضمين إليه وأغاروا على العماليق[٢٩]، ولهذا السبب يرى "دوف نوف" أن داوود هو مؤسس الحركة السياسية التى عارضت حكم شاؤول[٣٠].وقد أدخلت الملكية التى بدأها شاؤول فى إسرائيل عددا من التجديدات منها :

١- تركيز الحكم فى مدينة جبعه حيث جعلها مركزا له وحشد بها الجيش وقواده وتقع جبعة شمال أورشيلم[٣١]،وتعرف حاليا باسم **Tell-el-ful**

٢- أقام جيشا دائما منظما فى صورة مئات وألوف[٣٢] حيث اختار لنفسه ثلاثة آلاف رجل[٣٣] وضم إليه كل رجل جبار[٣٤]. وعين قائدا على الجيش هو أبنير بن نير (صموئيل الأول ١٤ : ٥٠) .

٣- استحداث طبقات اجتماعية جديدة مثل طبقة مقربى الملك[٣٥]، واستحداث وظائف جديدة مثل تعيين مستشارين للملك لتنفيذ أوامره[٣٦]، وكذلك وظيفة المعين على عبيد الملك[٣٧]، الذين كانوا

مسئولين عن قصره المتواضع[٣٨].

٤- أقيم فى عصر شاؤول مركز دينى صغير فى مدينة نوب المجاوره لجبعة، وسكن فى مدينة نوب الكهنة من أبناء عالى[٣٩].

ورغم كل هذه التجديدات التى أدخلها شاؤول، إلا أنه ظل يعيش كشيخ بدوى فى بلدته جبعة (صموئيل الأول ١٠ : ٢٦، ١١ : ٤) كما انحصرت حدود مملكته فى محور أفرايم وبنيامين[٤٠]. ولذا تعتبر فترة حكم الملك شاؤول فترة انتقال اجتماعية وسياسية بلغت ذروتها فى أيام دواد وسليمان[٤١].

ثانيا ــ نهاية عصر شاؤول وأسباب فشل الملكية فى عصره

تعتبر المعركة التى وقعت بالقرب من جلبوع الحرب الأخيرة التى حدثت بين شاؤول والفلسطينيين أحد أهم سكان فلسطين الأصليين، حيث اجتمع الفلسطينيون فى أواخر عصر شاؤول وبدأوا مهاجمة المنطقة الوسطى من الناحية الشمالية والتمركز عن طريق أحد الممرات[٤٢]، ثم التوجه إلى منطقة وادى يزرعئيل وبيت شان، وكان غرضهم من ذلك أن يقسم شاؤول مملكته قسمين أو أن ينزل إلى الوادى[٤٣]. وهذا تكتيك جديد فى حرب الفلسطينيين ضد الملك شاؤول، ويتضح من ذلك أن الفلسطينيين قد أدركوا جيدا أن هجوم بنى إسرائيل كان هجوماً فجائياً مثلما حدث فى الحروب السابقة التى حدثت بينهم وبين بنى إسرائيل، لذلك أراد الفلسطينيون هذه المرة أن تكون الحرب فى الوادى. وانتهت هذه الحرب لصالح الفلسطينيين وموت الملك شاؤول وبنيه الثلاثة "فمات شاؤول وبنوه الثلاثة وكل بنيه ماتوا معا"[٤٤]. واستولى الفلسطينيون مرة ثانية على إقليم القبائل الإسرائيلية والتى كانت تشمل فى ذلك الوقت الجليل وأرض شرق الأردن[٤٥]. وبعد انتصارهم أخذوا شاؤول وبنيه إلى بيت شان[٤٦] (حاليا هى Tell-el-husn)[٤٧].

بموت شاؤول وبنيه الثلاثة فى معركة جلبوع ينتهى تاريخ أول مَلك مّلك على بنى إسرائيل، وبموته صار وضع بنى إسرائيل أصعب مما كان عليه زمن صموئيل . وقد فشلت تجربة الملكية فى عصر الملك شاؤول وذلك للأسباب التالية:

١) عدم قدرة شاؤول على استيعاب الفئات المعارضة داخل مملكته، فمنعه ذلك من عدم توطيد انتصاراته واستقراره . وعلى سبيل المثال لم يستطع احتواء سبط يهوذا بسبب صراعه مع داوود.

٢) حظه من الروح الدبلوماسية قليل بسبب البيئة التى نشأ فيها.

٣) عصيانه وارتكابه الأخطاء ضد الرب، ويتمثل ذلك فى مخالفته لأوامر النبى صموئيل.

لذلك فإنه يمكن القول بأن فترة حكم الملك شاؤول فترة انتقال من عصر القضاة إلى عصر الملوك الذين جاءوا من بعده، أى أنها فترة تمهيد للمملكة زمن داوود وسليمان عليهما السلام.

ثالثا ــ عصر دواد

١- صراع داوود مع بيت شاؤول

عندما مات شاؤول فى معركته الأخيرة مع الفلسطينيين كان لا يزال داوود فى صقلغ تحت حماية الفلسطينيين ، وعندما علم داوود بموت شاؤول وبنيه ترك صقلغ وذهب إلى حبرون حيث أفراد عشيرته (صموئيل الثانى ٢ : ١-٣) ، ومسحه شيوخ يهوذا ملكا عليهم ، وتم له الاستيلاء على حبرون بمساعدة الفلسطينيين[٤٨]. وكان ذلك بداية الانتقال الفعلى من حكم قبلى إلى نظام مركزى له شبه كبير بنظم الدول المحيطة بفلسطين وقتذاك[٤٩].

هدف الفلسطينيون من مساعدة داوود أن يكون أعداؤهم ضعفاء لأنه

باستيلاء داوود على حبرون تضعف قوة بنى إسرائيل حيث كان لا يزال لشاؤول ابنا هو أشبعل الذى عينه أبنير بن نير قائد جيش أبيه ملكا فى محنايم التى فى جلعاد[٥٠]، واختار أبنير بن نير محنايم عاصمة للملك الجديد لبعدها عن خطر الفلسطينيين[٥١]، وكان أبنير بن نير هو الذى يدير شئون أشبعل[٥٢].

وبجعل شيوخ يهوذا داوود ملكا عليهم فى حبرون ، وبوجود أشبعل بن شاؤول ملكا على بعض الأسباط أصبح لبنى إسرائيل ملكان فى وقت واحد: داوود فى الجنوب حيث أعلن قيام دولة مستقلة فى الجنوب سكانها خليط من إسرائيلى يهوذا وبعض أفراد قبيلة كالب[٥٣] ، أما أشبعل بن شاؤول فقد مسح ملكا من قبل بنى جلعاد وبنيامين وانضم إليهم بنوا إفرايم وقبائل الشمال[٥٤]، وتم ذلك بمساعدة أبنير بن نير الذى استطاع أن يوحد القبائل الإسرائيلية العشرة وكون مملكة إسرائيل[٥٥] وجعل من محنايم عاصمة له . أما دواد فقد أسس مملكته فى الجنوب واتخذ من حبرون عاصمة له وأطلق عليها مملكة يهوذا نسبة إلى قبيلته[٥٦].

هكذا صار للإسرائيليين ملكان فى وقت واحد. وكانت حروب دامية بين يوآب بن صرويه قائد جيش داوود وأبنير بن نير قائد جيش أشبعل[٥٧] ، وكان أشبعل بطبيعة الحال ملكا ضعيفا، فقام عليه اثنان من جنده وقتلوه . وبموت أشبعل انتهى الملك من بيت شاؤول، بعدها توجه شيوخ إسرائيل إلى داوود ومسحوه ملكا على كل إسرائيل[٥٨]. وبذلك توحدت القبائل الإسرائيلية تحت حكم الملك داوود والذى ظل يحكم عليهم من ١٠١٠ ق.م – ٩٧٠ ق.م[٥٩] تقريبا. منها سبع سنوات وست أشهر فى حبرون وبقية حكمه فى أورشليم.

ويرى "بن ساسون" أن المادة التاريخية المعطاة لصعود داوود تمت خلال أربعة مراحل متميزة وهى[٦٠] :

المرحلة الأولى ــ وصول داوود بن يس إلى قصر الملك شاؤول حتى تزوج من

ابنته ميكال ، وقد ورد عرض مفصل لتلك المرحلة فى (صموئيل الأول ١٦-١٧).

المرحلة الثانية ــ اختفاء داوود من وجه شاؤول الذى ثار عليه وصار له عدوا منذ أن قتل داوود جليات الفلسطينى وحتى وفاة شاؤول فى معركة جلبوع الخاسرة (صموئيل الأول ١٨-٢٦).

المرحلة الثالثة ــ هى التى حاول أن يثبت فيها داوود للفلسطينيين كما لو كان عدوا لإسرائيل لينجو من حقد شاؤول عليه، بل إنه أراد أن يحَارب إلى جانبهم فى حروبهم ضد شاؤول (صموئيل الأول ٢٨-٢٩).وبعد أن تولى الحكم بفترة من الزمن انقلب جيش دواد ضد الفلسطينيين[٦١].

المرحلة الرابعة ــ المرحلة التى بدأت بتوليه الحكم فى حبرون إلى أن مات.

وكما توجد مراحل متميزة فى تاريخ الملك داوود، فإنه قد مسح كذلك على مراحل. وقد مسح للملكية ثلاث مرات[٦٢].

المرة الأولى: بواسطة النبى صموئيل سرا دون علم أحد من بنى إسرائيل، وذلك بعد مخالفة شاؤول لأوامر صموئيل التى هى فى الواقع أوامر يهوه إله بنى إسرائيل. وعندما مسح داوود للملكية بيد النبى صموئيل كان يبلغ من العمر ثمانية عشر عاما[٦٣].

والمرة الثانية: بواسطة شيوخ يهوذا فى حبرون بعد موت شاؤول "وأتى رجال يهوذا ومسحوا هناك داوود ملكا على بيت يهوذا"[٦٤]. وكان ذلك حوالى ١٠١٠ ق.م تقريبا[٦٥].

والمرة الثالثة: بواسطة كل شيوخ اسرائيل الذين حضروا إليه فى حبرون ومسحوه ملكا على كل إسرائيل "وجاء جميع شيوخ إسرائيل إلى الملك إلى حبرون فقطع الملك داوود معهم عهدا فى حبرون أمام الرب ومسحوا داوود ملكا على

إسرائيل حسب كلام الرب عن يد صموئيل"[٦٦].

٢- توسعات المملكة فى عصر داوود

بانضمام كل القبائل الإسرائيلية تحت قيادة داوود صار ملكا قويا ، ومنذ ذلك الحين بدأ يشعر الفلسطينيون بخطورة هذا الأمر. إلا أنه كان بين داوود والفلسطينيين عهدا. ولم يستطع داوود أن ينكث هذا العهد، كما كانت أمامه عقبة أخرى هي وجود اليبوسين فى حصن صيهون[٦٧]. لهذا أراد أن يزيل هذه العقبة أولا، لأن وجود اليبوسيين فى ذلك الموقع كان فاصلا بين إقليم يهوذا وبقية أقاليم الأسباط[٦٨]. وكان الحصن الذى سكنه اليبوسيون محاطا بمجموعة من الموانع الطبيعية التى يصعب اختراقها، لذا طلب داوود من اليبوسيين فى البداية أن يسلموه الحصن بالسلم فى مقابل أن يمنحهم الحرية[٦٩]، غير أن اليبوسيين رفضوا طلب الملك داوود، فدارت حرب بين الملك داوود واليبوسيين، وانتهت بهزيمة اليبوسيين وطردهم من هذا الحصن واستيلاء داوود عليه. وقد مهد استيلاء داوود على حصن يبوس زيادة الارتباط بين يهوذا وبنيامين وبين أسباط الشمال[٧٠]، وباستيلاء داوود أيضا على حصن يبوس نقل عاصمة المملكة إليه، ويرجع ذلك للأسباب التالية:

١) بُعد حبرون عن مركز البلاد كما أنها كانت مكان سبط يهوذا وذلك يؤدى إلى النزاع.

٢) مكان حصن يبوس كان واقعا خارج الحدود القبلية وذلك يؤدى إلى انتهاء النزعة القبلية.

٣) سيطرة الحصن على الطرق الداخلية، وسيطرته على أهم طرق التجارة الخارجية.

٤) كان الحصن محاطا بمجموعة من الجبال مما يسهل الدفاع عنه ضد

الاعتداءات الخارجية.

لهذه الأسباب اختار الملك داوود هذا الحصن ليكون عاصمة لمملكته، بعد أن ظل سبع سنوات ملكا على يهوذا وإسرائيل فى حبرون وهذا يعنى أن داوود لم يستول مباشرة على حصن يبوس فى أورشليم بعد أن ملكه شيوخ إسرائيل عليهم. ولذا يمكن القول بأنه ظل ملكا على سبط يهوذا وبعض أفراد قبيلة كالب لمدة عامين تقريبا وهى فترة حكم أشبعل بن شاؤول. ثم ملكا على كل إسرائيل فى حبرون لمدة خمس سنوات وباستيلائه على حصن يبوس أورشليم من اليبوسيين فى العام الثامن من حكمه نقل إليه عاصمة مملكته.

بعد أن صار داوود ملكا على كل إسرائيل أصبح يمثل قوة خطرة ـــ طبقا للرواية العهد القديم ـــ ضد الفلسطينيين أولئك الذى قبلوه عندهم ليحمى نفسه من وجه شاؤول، كما ساعدوه أيضاً فى الاستيلاء على حبرون بعد موت شاؤول.

رغم ذلك بدأ الصراع بين داوود والفلسطينيين أثناء حكمه فى حبرون [٧١]. ويبدو أن الصراع بدأ بينهما بعد أن صار داوود ملكا على كل إسرائيل فى حبرون، إلا أن الصراع بلغ ذروته بعد استيلائه على أورشليم.

وقد قامت بين داوود وبين الفلسطينيين ـــ طبقا للرواية العهد القديم ـــ ثلاثة حروب، الأولى: فى بعل فراصيم، والثانية: من جبع إلى مدخل جازر والمكانان قريبان من بعضهما إلى الجنوب الغربى من أورشليم[٧٢]، والحرب الثالثة: كانت على أرض فلسطين[٧٣] . وبعد ذلك "ضرب داوود الفلسطينيين وأخذ جت وقراها من يدهم"[٧٤]، بذلك اعترف الفلسطينيون بسيادته عليهم[٧٥]، ورغم اعتراف الفلسطينيون بسيادته عليهم فإنه لم يلغ حكم أخيش ملك جت بل أبقاه حاكما مواليا خاضعا له[٧٦].

ونتيجة انتصارات داوود على الفلسطينيين قام حيرام ملك صور ٩٨٠/٩٣٦ق.م [٧٧] وأرسل رسلا ، وقطع معه حلفا بموجبه أرسل إليه بنائين

وخشب أرز[٧٨] وازداد هذا الحلف أهمية أيام سليمان بن دواد . ويبدو أن حيرام قد قصد من تحالفه مع داوود أن تكون المنفعة متبادلة بين الطرفين ـــ إسرائيل وصور ـــ فقد ضمن حيرام فى هذا الحلف أن تمر القوافل التجارية الفينيقية القادمة من أرض مصر إلى أرض إسرائيل بدون مضايقات [٧٩]، نتيجة سيطرته على الطريق التجارى بعد هزيمة الفلسطينيين. وقد ظهرت أهمية الطريق التجارى زمن سليمان فاستخدمه مصدرا من مصادر الثروة والثراء فى مملكته، كما أن انتصار داوود على الفلسطينيين فتح أمامه أفاقا جديدة للتوسع، فبعد أن ضربهم وانتصر عليهم وأخضعهم، توجه للقضاء على الحاميات الكنعانية الكبرى التى كانت لا تزال موجودة فى البلاد مثل مجدو، وتفناك وبيت شان التى فى شاران[٨٠]. حارب داوود إذا جيرانه لكى يوسع حدود مملكته وحمايتها من الاعتداءات الخارجية. فقام داوود و"حارب المؤابيين وأخضعهم له وصاروا له عبيدا ودفعوا الضرائب"[٨١].ويرى " ب. ميزر أن داوود قام بهذه الحرب لفرض الحاجة الملكية وليدافع عن أقاليم الاسباط فى تلك المنطقة وهى مقاطعات رأوبين وجاد[٨٢].

أما حرب داوود التالية فقد كانت ضد العمونيين، وقد استدعوا الآراميين لمساعدتهم ضد الملك دواد، وكان ذلك أول ظهور للآراميين زمن داوود، حيث كانوا يسكنون شمال شرق فلسطين وكانوا مقسمين إلى، شعوب صغيرة[٨٣]. يلاحظ ذلك من وجود أسماء كثيرة مثل آرام صوبه، آرام دمشق آرام التهرين، وطبقا لرواية العهد القديم فإن داوود لم يتوجه إلى محاربة الآراميين لكن هم الذين اقحموا أنفسهم فى الحرب، وذلك بمساعدتهم للعمونيين ضد داوود، ويرى ب ـ ميزر، أن هدف هدد عزر ـــ من مساعدة العمونيين ـــ توسيع سلطانه فى مناطق عبر الأردن ليسيطر على طريق الملك أحد الطرق التجارية الهامة فى التجارة الدولية فى ذلك الوقت[٨٤]. وقد دارت بين الآراميين ومعهم العمونيين ضد داوود ثلاثة حروب حاسمة[٨٥]، فكانت الحرب الأولى: فى سهل ميديا وكانت حربا ضارية اشترك فيها العمونيون والآراميون ضد الإسرائيليين، لكن يوآب بن صرويه

قائد جيش داوود خطط لهذه المعركة حيث قسم جيشه إلى قسمين أحدهما تحت قيادته، والآخر تحت قيادة أخيه، وذلك لكى ينقضوا عليهم من الجاهين فى وقت واحد، وانتهت تلك الحرب بانتصار يوآب بن صرويه.

وكانت الحرب الثانية فى حيلام – وطبقا لرواية سفر صموئيل الثانى ١٠ ١٧ ـ فإن داوود هو الذى اختار مكان المعركة ، فبعد أن هزم هدد عزر فى الحرب الأولى جهز جيشا من جديد وأرسله بقيادة شوبك وانتصر داوود فى هذه الحرب ومات شوبك[٨٦].

أما الحرب الثالثة: فهاجم فيها داوود هدد عزر الذى كان مشغولا بحربة ضد الأشوريين واحتل داوود آرام دمشق ووصل حتى نهر الفرات[٨٧] وجعل عليهم محافظين[٨٨] لكن سرعان ما تخلصت دمشق[٨٩].

ومهما يكن من أمر، فإن انتصارات داوود المتتالية على الفلسطينيين والعمونيين والآراميين ـ طبقا لرواية العهد القديم ـ مكنته من توسيع حدود مملكته فوصلت إلى سوريا فى الشمال الغربى ووادى الفرات فى الشمال الشرقى وصار الشاطئ الداخلى من الكرمل حتى جبع تحت سيطرته [٩٠]. كما امتدت مملكته إلى عصيون جابر التى تقع على البحر الأحمر فى الجنوب[٩١] ووصل فى الشمال إلى حدود مملكة حماة – الحيثيين الجدد – واعترف توعى ملك حماه بسيادة داوود وأرسل له هدايا[٩٢]، ومما ساعد داوود على تأمين حدود مملكته – لفترة مؤقتة – ضعف مصر فى الجنوب وأشور فى الشمال[٩٣].

٣ ـ نظام الحكم والإدارة فى مملكة داوود

يمكن القول بأن السبب الرئيسى لانتصارات داوود وتوسعات مملكته يرجع إلى ثلاثة أسباب رئيسة: أولها، أن فترة وجود داوود على مسرح الأحداث كانت تمثل فترة التدهور والضعف التى أصابت مصر فى الجنوب وبابل وآشور فى

الشمال. وثانيها ، تتمثل فى قـدرة داوود علـى توحيـد القبائـل الإسـرائيلية تحـت قيادته. وثالثها، تبدو فى النظـام العسـكرى والإدارى الـذى نظمـه الملـك داوود، والذى لم يكن موجودا من قبل عند بنى إسـرائيل ـــ ويـرى ألبرايـت **Albright** أن الملك قد نظم الوظائف طبقا للنمـاذج الـتى اسـتخدمت فى الـدواوين المصـرية ويضيف بأنه إما أن يكون قد استعارها مباشرة أو عن طريق تدخل الكنعانيين[٩٤].

قام الملك داوود بعمل نظام حكم إدارى جديد لم يعرفه بنـو إسـرائيل مـن قبـل فبعد استيلائه على أورشليم قام ببناء قصر ملكى فيهـا وقصـر لحاشـيته بـدلا مـن خيمة شاؤول. ومن تلك المدينـة ــ أورشـليم ــ ظـل يحكـم علـى كـل أسـباط إسرائيل، لذلك فقد حولها إلى مركز سياسـى سـرعان مـا تحـول إلى مركـز ديـنى روحى فيما بعد ، وذلك بنقله تابوت العهد إلى أورشليم وتجهيزه المكـان الـذى يـبنى عليه معبد الرب وهيكله ، وتنظيمه لطوائـف الكهنـه واللاويـين وحارسـى تـابوت العهد والمغنيين[٩٥] .

ويتكون جهـاز داوود الإدارى مـن عنصـرين أساسـيين: همـا عمـال المملكـة والجيش. فالعنصر الأول: عمال المملكة فقد وردت قوائم مفصـلة لـذلك فى سـفرى أخبار الأيام الأولل وصموئيل الثانى (أخبـار الأيـام الأولى ١٨: ١٤ـــ١، صـموئيل الثانى ٨: ١٥-١٨، ٢٠-٢٣). تقدم هذه النصـوص قـوائم رؤسـاء وقـادة داوود وهم: يوآب بن صرويه على الجيش، ويهوشافاط بن أخيلود مسـجلا وهـو المسـئول عن نشر أوامر الملك[٩٦] ثم الكاهنان صادوق وأبياثار، وسـرايا الكاتـب، وفى أخبـار الأيام الأول ١٨: ١٧ "شوشا". ويبـدو مـن خـلال التسـمية أن مهمتـه كانـت محدودة فى المرسلات وخاصة المكاتبات الخاصـة بالملـك. وإلى جانـب تلـك القائمـة من عمال المملكة توجد قائمة أخرى للوظائف الـتى أقامهـا داوود وهـى موجـودة فى سفر أخبار الأيام الأول ٢٧: ٢٥-٣١ حيث تـذكر أسمـاء المـوظفين الـذين كـانوا معينين على خزائن الملك، وخـزائن الحقـول والمـدن والأبـراج، وأعمـال الحقـول

وتعبيد الأرض وعلى المنتجات الزراعية مثل العنب، والكرميم، والزبيب، والمعينين على منتجات البقر والغنم والضأن.

يبدو من تلك القائمة مدى التقدم فى فروع العمل خاصة فى المجال الزراعى. كما توجد وظيفتان لم تذكرا فى تلك القوائم لكنهما تظهران فقط فى ثنايا الروايات وهما: أخيتوفل مستشار الملك، وحوشى الأركمى صديق الملك.وقد أعطى الوصف لوظائفهم أثناء ثورة أبشالوم على الملك داوود، حيث استعان بهما أبشالوم لخبرتهما فى الشئون السياسية والتكتيكات الحربية(٩٧)، كما ظهرت وظيفة فى المملكة بعد ثورة أبشالوم هى وظيفة المعين على الضرائب(٩٨). ومن الواضح أنها لم تذكر ضمن قائمة موظفى الملك لأنها تبدو وظيفة متأخرة أى أن الضرائب لم تفرض فى بداية حكم داوود لكن فرضت فى أواخر حياته.

وأما الجيش فيتكون من مجموعتين: المجموعة الأولى: يتكون منها الجيش الدائم وهو جيش الجبابرة (٩٩)، وقد كان قوامه مجموعه داوود(١٠٠)، الملك التى كانت تعيش على السلب(١٠١)، وكان قائد الجيش هو يوآب بن صروية وأسماء أبطال جيش داوود توجد فى سفر صموئيل الثانى ٢٣ : ٨، أخبار الأيام الأول ١١ : ١٠.والمجموعة الثانية: هم الجند المؤجرون (السعادة والجلادون) (١٠٢) ، وكان قائدهم هو بناياهو بن يهوياداع أخبار الأيام الأول ١٨ : ١٧ ، وكان هؤلاء مؤجرين من الكريتيين، والفلسطينيين والحيثيين(١٠٣) وإلى جانب هؤلاء توجد جماعة من الجتيين تخدم عند داوود (صموئيل الثانى ١٥ : ١٨).

٤ – نهاية داوود

اشتد الصراع داخل البيت الملكى مما أدى إلى إضعاف حكم داوود فقد قتل أمنون بيد عبيد أبشالوم، بل إن أبشالوم نفسه قام بثورة ضد الملك داوود ومن الأسباب التى ساعدت أبشالوم فى ثورته ضد داوود التغييرات الاجتماعية التى أدخلها داوود إلى حياة بنى إسرائيل، وإلغائه المؤسسات الاجتماعية القبلية. وقد

ساعد أبشالوم فى ثورته ضد داوود طائفتان هما : طائفة شيوخ إسرائيل ورجال يهوذا[١٠٤] . وهؤلاء كان لهم النفوذ أيام القبلية وبتركيز الحكم فى يد ملك واحد، وإحداثه التغييرات الاجتماعية قد انتهت مهمتهم، لذلك استطاع أبشالوم أن يستميلهم إليه، ووعدهم بإحياء المؤسسات القبلية التى ألغاها داوود – أما الطائفة الأخرى التى ساعدت أبشالوم فهى طائفة الموالين لبيت شاؤول[١٠٥] كما انضم إليه كثير من الإسرائيليين[١٠٦]. وتزايدت قوة أبشالوم مما أدى إلى هروب الملك داوود وجميع أنصاره إلى شرق الأردن[١٠٧] ، وكانت أولى المدن التى دخلها داوود بعد هروبه من أورشليم مدينة بحوريم فى مقاطعة بنيامين[١٠٨].

كانت ثورة أبشالوم فى مراحلها الأولى ناجحه ضد الملك داوود، واستطاع أبشالوم أن يدخل إلى أورشليم بعد أن تركها داوود، كما استولى أبشالوم على بيت الملك وأعلن نفسه ملكا[١٠٩]. ثم دارت الحرب بينها فى إقليم إفرايم وهزم فيها أبشالوم وانتصر جيش داوود[١١٠]، والسبب الرئيسى فى هزيمة أبشالوم أنه لم يتوفر لجيشه التنظيم والتخطيط الذى كان يتوافر لجيش داوود.

بانتصار جيش داوود على أبشالوم تجمع جميع بنى إسرائيل مرة ثانية حول الملك داوود. وكانت الجلجال أولى المدن التى دخل إليها الملك داوود بعد أن عبر الأردن[١١١]. وما كاد الملك داوود يفرح بثمرة الانتصار على أبشالوم حتى قام عليه شبع بن بكرى من سبط بنيامين[١١٢]، وقد كانت ثورته أيضا ثورة على التغييرات الاجتماعية التى أدخلها داوود. وما أن علم الملك داوود بذلك حتى أصدر أوامره بجمع جيش قوى ومطاردة شبع بن بكرى. وانقض جيش يوآب بن صرويه على شبع بن بكرى فى كل البلاد ، وعادت الجماعة مرة ثانية إلى داوود[١١٣]. وبذلك استطاع الملك داوود أن يستعيد نفوذه كما جدد مؤسسات الملكية مرة ثانية[١١٤].

هكذا نجد أن الضعف بدأ فى بيت داوود بقتل أبشالوم أمنون، وموت أبشالوم

أثناء ثورته على دواد. كما حدث خلاف آخر فى بيت الملك حيث أراد أدونيا بن داوود أن يصير له المُلك وذلك طبقا لنظام البكورية، ووقف إلى جانبه كل من يوآب بن صرويه قائد الجيش وأبياثار والكاهن[١١٥]. وفى مقابل هذا الفريق كان يوجد فريق آخر يرغب أن يكون المُلك لسليمان وعلى رأس على هذا الفريق بناياهو بن يهوياداع وناثان النبى وصادوق الكاهن[١١٦]. وأعطى الملك داوود أمرا بأن يكون سليمان هو الملك، فمسحه كل من يهوياداع وناثان وصادوق ملكا على إسرائيل وتولى سليمان الملك وداوود لا يزال حيا[١١٧].

تعتبر هذه الانقسامات بين داود وأبشالوم، وبين داوود وشبع بن بكرى البنياميى، وكذلك الصراع داخل بيت داوود تعتبر مقدمة لتاريخ الملك سليمان. ونموذجا للإنقسام الذى حدث فى نهاية حكم سليمان. وقد حذف مؤلف سفرى أخبار الأيام الأحداث الخاصة بالصراع داخل بيت ذاوود وذلك على عكس سفر صموئيل الثانى، والسبب فى ذلك أن محرر سفرى أخبار الأيام يعتقد أن هذه المملكة مملكة الهية نموذجية. ولذا فإنه يجب ألا تحدث مثل هذه الانقسامات فى المملكة الإلهية النموذجية، ولذلك اعتبر أن تولية سليمان من قبل الرب، ولذلك مسح داوود سليمان ملكا وهو لا يزال حيا. وذلك ليمنع الصراع على خلافة الملك، كما أن الرب هو الذى أمره بذلك "هوذا يولد لك ابن يكون صاحب راحة وأريحة من جميع أعدائه حواليه لأنه اسمه يكون سليمان فأجعل سلاما وسكينة فى إسرائيل فى أيامه هو يبنى بينا لاسمى وهو يكون لى ابنا وأنا له أبا وأثبت كرسى ملكه على إسرائيل إلى الأبد".

رابعا ـــ عصر سليمان

سبق الإشارة إلى أنه فى أواخر حكم داوود عليه السلام حدث صراع داخل البيت الملكى من أجل وراثة العرش، ولكى ينهى داوود هذا الصراع مسح سليمان ملكا على بنى إسرائيل وهو لا يزال حياً، وقد ملك سليمان وعمره ستة

عشر عاما وحكم ثلاث سنوات قبل موت داوود[١١٨] ، وظل سليمان يحكم على مملكة إسرائيل لمدة أربعين عاما ٩٧٠/ ٩٣٠ق.م[١١٩].

وبعد أن مات داوود عليه السلام وصار الملك لسليمان وحده، بدأ يتخلص من جميع منافسيه فى الملك، فأمر بنياهو بن يهوياداع قائد السعادة والجلادين أن يقتل أدونياه، كما أمر بقتل يوآب بن صرويه الذى كان يعضد موقف أدونياه[١٢٠]، ليس ذلك فحسب بل إنه عزل إبياثار الكاهن وعين مكانه صادوق كاهنا (الملوك الأول ٢ : ٣٥) . ومنذ أن عين سليمان صادوق كاهنا صارت له ولنسله من بعده حوالى ألف سنه[١٢١] . كما أمر سليمان بقتل جيرا من سبط بنيامين وكان جيرا يكره بيت داوود ويحب بيت شاؤول[١٢٢]. هدف سليمان من ذلك أن يستريح من متاعبهم. ويرى "دوف نوف" أن هذا السلوك كان سائداً فى الممالك القديمة عند انتقال الحكم حيث يباد معارضى حكم الملك الجديد[١٢٣]، حتى يتفرغ الملك الجديد لإدارة شؤون ملكه من خلال مؤيديه. ولم يرث سليمان فقط مملكة داوود السياسية فحسب، بل إنه ورث تنظيماً عسكريا وإداريا متطوراً.

١ ـــ سياسة سليمان الداخلية

يحفظ العهد القديم قائمة مفصلة بأسماء القادة زمن سليمان، وهؤلاء القادة هم:عزرياهو بن صادوق كاهنا، أما وظيفة الكاتب ففى زمن سليمان وجد اثنان هما أليحروف وأخيا بن شوشا، وعين يهوشافاط بن أخيلود مسجلا، وقد كان على الجيش بناياهو بن يهوياداع، أما الكهانة فكانت لصادوق وأبياثار، وعلى الوكلاء عين عزرياهو بن ناثان، وكان زابود بن ناثان صديق الملك، وعين أخيشار على بيت الملك، وأدونيرام بن عبرا على التسخير[١٢٤].

يلاحظ من هذه القائمة إذا ما قورنت بالقائمة زمن الملك داوود أن هناك وظيفتين جديدتين استحدثهما سليمان هما: المعين على البيت (بيت الملك)، والمعين

على الاثنى عشر (الذى على الوكلاء) [١٢٥]. فبعد موت داوود أراد الملك سليمان أن ينهى الانقسامات بين القبائل ويوحدها فقام وقسم المملكة إلى اثنى عشر مقاطعة[١٢٦].وهذا التقسيم لم يتفق بصورة عامة مع حدود منازل الأسباط الاثنى عشر[١٢٧]. أراد سليمان من هذا العمل أن ينهى النزعة الانفصالية بين بنى إسرائيل.

ويرى "بن ساسون" أن هذا التقسيم كان قائما منذ أيام داوود، لكن التجديد الذى أدخله سليمان هو التزام كل قسم بتزويد الملك وأقليمه[١٢٨]بما يحتاجه الملك. كما أنه هدف من هذا التقسيم تسهيل جميع الضرائب وتمهيد قوة العمل الجماعى بين بنى إسرائيل والشعوب المجاورة. وليحقق ذلك أقام الملك سليمان على كل قسم من تلك الأقسام الاثنى عشر وكيلا له[١٢٩]. ويرى كل من "ألبرايت" "Albright" وميزر " מייזר " أن من بين تلك القائمة – الموكلين الاثنى عشر – اثنين تزوجا من بنات الملك[١٣٠]. وقد قام سليمان بتحصين المدن وذلك لتقوية مكانته من الناحية العسكرية رغم أنه ملك سلام، كما قام بتطوير وتقوية عربات الحرب وتنظيم سلاح الفرسان[١٣١] ، وأقام مدنا خاصة للعربات والفرسان حيث كان له ١٤٠٠ ألف وأربعمائة عربة ، ١٢٠٠ ألف ومائتى فارس، ٤٠٠٠ أربعة آلاف اصطبل[١٣٢] . ونتيجة لموقع أورشليم التجارى وسيطرتها على طرق التجارة فى عصر سليمان أمر سليمان ببناء مدن خاصة وذلك لتقيم فيها القوافل التجارية وحفظ التجارة[١٣٣].

أما أهم الأعمال التى قام بها الملك سليمان واقترنت باسمه على مر العصور ــ طبقا لرؤية العهد القديم ــ بنائه هيكل الرب. وقد قام ببنائه طبقا للأمر الإلهى الذى أصدره الرب إلى داوود أبيه، وتأسس هذا الهيكل بمساعدة خبراء من صور[١٣٤]، وتم ذلك بسبب العلاقات الطيبة بين سليمان وملك صور، وقد صمّم هذا الهيكل طبقا لتخطيط الهياكل فى شمال سوريا[١٣٥]. ورفع هذا البناء مكانة

أورشليم وصارت مدينة مقدسة . وقد عمل هذا البناء على التركيز الديني القومي بها، وصار رمزاً لوحدة إسرائيل كما صارت له قيمة روحية جديدة[١٣٦]. وبهذا صارت أورشليم مدينة سياسية دينية روحية يرتبط بها اليهود — منذ التسمية يهود داخل فلسطين أو خارجها — وارتبط كذلك تاريخهم بتاريخ تلك المدينة. كما زين سليمان عاصمته أورشليم بمبانٍ متزايدة شملت قصوراً له ولنسائه[١٣٧] .

ولكي يوطد سليمان علاقاته مع جيرانه صاهر، العمونيين والمؤابيين والآراميين والكنعانيين والحيثيين[١٣٨]، بل إنه تزوج ابنة فرعون مصر[١٣٩] وبنى لها قصرا خاصا[١٤٠]. ولكي يجلب الماء إلى أورشليم والهيكل قام بشق القنوات من عيطام[١٤١].

وقد عثر على كشف أثرى يلقى الضوء على الحياة الصناعية عند بنى إسرائيل فى عصر سليمان، فقد اكتشف الدكتور "جلوك" فى عصيون جابر مناجم للنحاس ومصانع لتكريره حيث يدل بناؤها على تقدم كبير فى العلم والخبرة الفنية[١٤٢] وبسبب تزايد تجارة سليمان مع الدول المجاورة وسيطرته على الطريق التجارى زاد الثراء والغنى فى مملكته.

٢ — سياسة سليمان الخارجية

استطاع الملك سليمان أن يوطد علاقاته مع الإمبراطوريات المجاورة له فى النصف الأول من حكمه، وساعده على ذلك الوضع الدولى، فكان الوضع الدولى آنذاك فى صالح الملك سليمان. فكانت مصر تحت سيطرة حكام ضعاف من الأسرة الحادية والعشرين، كما كانت أشور تحت حكم تجلات فلناسر الثانى ٩٦٦/٩٣٥ق.م[١٤٣] . لذلك نجد سليمان يدعم موقفه فى الجنوب بالاتحاد مع مصر[١٤٤]، وذلك مع سى — آمون الذى كان معاصراً له [١٤٥]، وقد بدأت العلاقة بينهما عن طريق المصاهرة حيث تزوج سليمان من ابنة فرعون مصر (الملوك الأول ٣ : ١) وكانت بنت فرعون الملكة الأولى فى بيت الحريم[١٤٦]

ومنحها سليمان مكانة خاصة بين زوجاته العديدات[١٤٧].

وصاهر الملك سليمان العديد من الملوك المجاورين له فتزوج من العمونيين والمؤابين والحيثيين... ويعلق ديورانت على ذلك بقوله "لعله – سليمان– أراد ببعض هذه الزيجات أن يوطد صلاته بمصر وفينيقية ، أو لعل الباعث له عليها هو نفس الباعث الذى حمل رمسيس الثانى على هذا العمل بعينه وهو رغبته فى أن يترك وراءه طائفة من الأبناء لها من القوة والخشية العظيمة ما كان له هو"[١٤٨]. وقد كان زواج سليمان من ابنة فرعون عملا سياسيا من الدرجة الأولى حيث استأنفت مصر فى ذلك الوقت هجومها على أرض كنعان واستولت على مدينة جازر الكنعانية التى على حدود فلسطين[١٤٩] وتلك المدينة – جازر – أخذها سليمان هدية من فرعون مصر[١٥٠].وبهذا الزواج استطاع الملك سليمان أن يوطد علاقاته مع مصر فى الجنوب ويؤمن حدود مملكته الجنوبية ــ فى النصف الأول من سنى حكمه ــ كما أدت هذه العلاقة إلى علاقات تجارية بين البلدين[١٥١]، حيث قامت بين مصر وبنى إسرائيل وبلاد الحيثيين والآراميين تجارة نشيطة واسعة أساسها تجارة الخيل[١٥٢]. ويرى "ب ميزر" أن الفرسان كانت تجلب من قليقلة بواسطة تجارة الملك ويجلبوها إلى مصر لكى تتدرب وتتروض ثم يأخذونها من مصر ويبيعونها إلى الحيثيين والآراميين[١٥٣]. ويؤيد ذلك "بن ساسون" ويضيف بأنه جلبت من مصر مراكب الزينة المستخدمة فى الطقوس والمراسيم وقد جرت هذه التجارة على يد تجار الملك[١٥٤]. وبسبب تجارة الخيل قام الملك سليمان ببناء مدن خاصة للعربات والفرسان[١٥٥].

لم يكن سليمان قد أقام علاقات مع فرعون مصر فحسب، بل إنه حافظ على العهد الذى كان بين داوود وحيرام ملك صور.وكان لهذا الحلف أهمية تجارية ، فقام على المنفعة المتبادلة بين الملك سليمان وحيرام ملك صور، فالملك سليمان كان لديه فائض عن حاجته من الغلات الزراعية ، فزود بها حيرام ملك صور،

ومقابل ذلك قام حيرام ملك صور بتزويد سليمان بخشب الأرز والبنائين وكل ما يحتاجه الملك سليمان فى بناء هيكل الرب[١٥٦] . ووصل سليمان عن طريق صور ودولة الحيثيين الجديدة فى شمال سوريا إلى مصادر المعادن والنحاس فى قبرص والحديد فى آسيا الصغرى[١٥٧]، واستخدم النحاس الذى جلب من قبرص فى تزيين هيكل الرب وقصر الملك، واستخدم الحديد فى صناعة الأسلحة. وأرسل سليمان سفنه إلى ترشيش فى جنوب إسبانيا فجلبت سفنه من هناك الذهب والفضة والطاووس[١٥٨]، وطبقا لرواية العهد القديم فإن الملك سليمان قد شيد ميناء عصيون جابر على خليج العقبة، وجعله مركزا لأسطوله التجارى وأرسل تجار صور وبنى إسرائيل سويا إلى أوفير[١٥٩]. وكانت السفن تعود محملة من أوفير بما يحتاجه الملك من عاج وذهب وأخشاب ثمينة، وكانت الرحلة تستمر ثلاثة سنوات[١٦٠] . وعملت الرحلة إلى أوفير مرتين فى عصر سليمان[١٦١]. وكانت التجارة التى تجلب من أوفير تفرغ فى ميناء عصيون جابر وتنقل على ظهر الجمال إلى أورشليم[١٦٢].

ونتيجة لتلك العلاقات السلمية التى قام بها الملك سليمان مع كل من مصر وصور زاد النشاط التجارى فى عصره وأصبحت أورشليم مدينة تجارية كبرى بالإضافة إلى كونها مدينة سياسية دينية، وترجع أهمية تلك المدينة إلى سيطرتها على الطرق التجارية حيث سيطر الملك سليمان على الطرق البرية التى تربط آسيا وأفريقيا بأوربا والطريق البحرى لكون حدوده كانت تطل على البحر الأحمر والبحر المتوسط مما أدى، إلى زيادة مكانة مملكة سليمان فى ذلك الوقت، وأدى هذا بدوره إلى زيادة الثراء فى مملكته نتيجة العمليات التجارية.

وذاع صيت الملك سليمان فى أرجاء الشرق القديم آنذاك فجاءت إليه من جنوب الجزيرة العربية الملكة بلقيس مملكة سبأ تطلب وده ومعونته[١٦٣]، وذلك لما سمعت به عن شهرة هذا الملك فى الحكمة والعدل والثراء.

٣ ـ نهاية عصر سليمان عليه السلام

تغير الوضع السياسى الدولى فى النصف الثانى من حكم الملك سليمان عن الوضع السياسى الدولى فى بداية حكمه. أثر التغيير فى الوضع الدولى آنذاك على الوضع السياسى داخل مملكة سليمان نفسها. ورغم الأعمال التى قام بها سليمان ونشاطه التجارى الواسع فقد انعكس هذا على الملك سليمان، فبناء هيكل الرب وقصر الملك احتاج إلى أعمال كثيرة وعمال عدة حتى تتم هذه المبانى، وقد سخر الملك بنى إسرائيل لعمل تلك المبانى، بل إنه فرض عليهم الضرائب لكى يكمل هذا العمل ويتمه، ونتيجة لذلك كان سخط بنى إسرائيل وتذمرهم ضد سليمان، وتلك كانت فرصة ليربعام بن ناباط من سبط أفرايم أن يثور ضد الملك سليمان ويتمرد عليه. وطبقا لرواية العهد القديم فقد سانده أخيا الشيلونى الذى تنبأ لصالحه، ولما علم سليمان بثورة هذا الثائر أمر بقتله لكنه هرب عن طريق عبر الأردن ولجأ إلى مصر[١٦٤] وبذلك فشلت ثورة يربعام ضد الملك سليمان.

أما الوضع الدولى فى أواخر حكم سليمان فقد تغير هو الآخر. فقد اعتلى عرش المملكة فى مصر الملك القوى شيشنق مؤسس الأسرة الثانية والعشرين ، وأراد هذا الملك أن يستعيد إلى مصر عظمتها[١٦٥]. ومن الطبيعى أن يكون الملك سليمان عدوا للفرعون شيشنق ملك مصر الجديد لأن سليمان كان صهرا للملك سى ـ آمون من الأسرة السابقة . وبصعود شيشنق على العرش فى مصر توقفت العلاقات الحسنه بين إسرائيل ومصر[١٦٦].وهذا هو السبب الذى جعل يربعام بن ناباط يلجأ إلى مصر ويطلب حمايتها عندما فشلت ثورته ضد الملك سليمان . وقد استمر يربعام بن ناباط فى مصر حتى مات سليمان.

أما فى الشمال فقد اندلعت الثورات على الملك سليمان من جانب الآراميين فاستطاع رزون بن أليادا ع تأسيس أسرة ملكية مستقلة فى دمشق (الملوك الأول ١١:٢٣)، وقد كان فى ثورة رزون بن أليادا ع وانفصاله عن مملكة سلمان ضربة

قوية للملك سليمان لأنه لم يخسر فقط الأراضى الآرامية فى سوريا، بل خسر أيضا سلطانه على طريق التجارة الهامة فى المنطقة(١٦٧). وقد أصيب الملك سليمان من فقدان هذا الطريق التجارى الحيوى والذى كان مصدرا من مصادر الثروة لمملكة سليمان. كما نصب هدد الأدومى نفسه ملكا على أدوم(١٦٨)، الذى استطاع أن ينجو من المذبحة التى عملها يوآب بن صرويه فى أدوم زمن داوود فهرب إلى مصر وظل بها طول فترة حكم سليمان – بداية حكم سليمان – وذلك لأنه لم يستطع أن يثور أو يعود إلى أرضه بسبب علاقة المصاهرة التى كانت بين سليمان وملوك الأسرة الحادية والعشرين. لكن عندما تولى شيشنق الحكم فى مصر وبدأ حكم الأسرة الثانية والعشرين استطاع هدد الأدومى انتهاز تلك الفرصة وعاد إلى أدوم وأثار الثورة ضد سليمان، ولم يستطع رجال جيش سليمان إعاقة أعمال هدد الأدومى(١٦٩).

نتيجة لتلك الأحداث التى طرأت فى النصف الثانى من حكم سليمان ضعفت مملكته وخسر عددا كبيرا من البلاد التى كان قد استولى عليها داوود. ويمكن تلخيص أسباب ضعف مملكة سليمان فيما يلى:

١) فرض الضرائب الكثيرة على بنى إسرائيل.

٢) عملية التسخير التى قام بها سليمان لاتمام بناء الهيكل.

٣) الإسراف والتبذير فى المبانى والقصور الفاخرة.

٤) فقدان السيطرة على الطريق التجارى باستيلاء رزون على آرام دمشق وهدد على أرض أدوم، وفقدان أكبر مصدر من مصادر الثروة.

٥) تنازل سليمان عن عشرين مدينة لحيرام ملك صور.

٦) تغيير الوضع السياسى الدولى فى نهاية حكم سليمان وظهور قوى جديدة معادية لسليمان.

بدأ تدهور مملكة سليمان فى نهاية عصره بسبب تمرد يربعام بن نابط الذى استفاد من مساعدة فرعون مصر الذى رغب فى استعادة النفوذ المصرى فى منطقة فلسطين، واستفاد كذلك من السخط الدينى الناجم عن انتشار العبادات الوثنية. علاوة على ذلك فإن قبائل الشمال لم تكن على وفاق مع الحكم الداوودى السليمانى . ظهر عدم الاتفاق واضحا بعد موت سليمان مباشرة حيث انقسمت مملكته إلى مملكتين مملكة إسرائيل فى الشمال وشملت عشرة أسباط من بنى إسرائيل وتولى أمرها ملوك من بيوت متعددة، ومملكة يهوذا فى الجنوب وشملت سبطى يهوذا وبنيامين وتولى حكمها ملوك من نسل داوود.

وقبل أن ننهى هذا الفصل يجب الإشارة إلى أننا استخدمنا مصطلح بنى إسرئيل منذ بداية ظهوره حتى نهاية عصر سليمان بالمدلول العرقى والأثنى، بالإضافة إلى المدلول الدينى. غير إننا من بداية انقسام مملكة داوود وسليمان إلى مملكتين أحدهما فى الشمال وتسمى إسرائيل، والثانية فى الجنوب وتسمى يهوذا فإن مصطلح إسرائيل نقصد به المدلول السياسى أى مملكة الشمال (إسرائيل)، وكذلك المدلول الدينى. كما نستخدم يهوذا بمدلولها السياسى لتشير إلى مملكة يهوذا، أما تراثها الدينى كان لا يزال تراثا إسرائيليا لكنه يختلف فى الوقت نفسه عن تراث مملكة الشمال الدينى. ومع انتهاء الوجود السياسى لإسرائيل على أيد الأشوريين فإننا نستخدم المصطلح يهودى كمدلول سياسى ودينى ليدل على جميع الجاليات اليهودية فى مختلف بلاد العالم وكذلك ليدل على التراث الدينى بعد مزج التراثين الشمالى والجنوبى وسيطرة التراث الجنوبى على التراث الشمالى .

الفصل الرابع

تاريخ بنى إسرائيل من انقسام مملكة داوود وسليمان حتى نهاية مملكة إسرائيل

أولا ـــ صراع وتنافس إسرائيل ويهوذا : الأسباب والنتائج

ذكرنا أن الصراع بين قبائل بنى إسرائيل بدأ منذ نشأة الملكية فى عصر شاؤول، وإن حدث اتحاد بين قبائل الشمال وقبائل الجنوب فكان اتحادا نتيجة الظروف السياسية فى عصر شاؤول لمواجهة خطر الفلسطينيين والعمالقة. لكن سرعان ما حدث الانقسام بعد موت شاؤول حيث ظل داوود سبع سنوات ملكا على سبط يهوذا فى حبرون ، بعدها صار ملكا على كل الأسباط وساعده على ذلك المواجهات مع سكان الأرض الأصليين سواء الفلسطينيين أوالكنعانيين ، أوالمواجهات مع جيرانه الأدوميين والعمونيين والآراميين . ليس هذا فحسب بل وجد تمرد داخل البيت الداوودى فى عصر داوود نفسه ، ومع ذلك فقد استمر اتحاد القبائل إلى حد ما زمن سليمان . ويعود السبب فى ذلك إلى محاولة تركيز داوود وسليمان العبادة فى أورشليم حيث قام داوود بتجهيز أدوات المعبد ، وقام سليمان بتنفيذ البناء . غير أن اتحاد القبائل لم يستمر طويلا ففى نهاية عصر سليمان بدأ تصدع داخل المملكة، وبعد موته وصل الانقسام إلى ذروته، وذلك بانفصال يربعام بن ناباط عن رحبعام بن سليمان. أدى ذلك الانفصال إلى صراع مستمر بين المملكتين.

وبعد موت سليمان عاد يربعام بن ناباط من مصر عندما علم بخبر وفاة سليمان، وانتهز تلك الفرصة وكذلك الأوضاع الاقتصادية المتهورة وخاصة زيادة

الضرائب، وتزعم الثورة ضد رحبعام بن سليمان وكون له مملكة فى الشمال ضمت كل القبائل الإسرائيلية، وقد ساعده على ذلك جواب رحبعام بأنه سوف يزيد من الأعباء عليهم. اتخذ يربعام من شكيم عاصمة له ، وانضم إليه عشرة أسباط من أسباط بنى إسرائيل ، وكان ذلك ذروة الانفصال السياسى عن البيت الداوى السليمانى. أما رحبعام فقد استقر فى أورشليم وملك على سبطى يهوذا وبنيامين اللذين ظلا مخلصين لبيت داوود .

لم يكن الانفصال انفصالا سياسيا فحسب بل أراد يربعام أن يقطع العلاقة تماما مع مملكة الجنوب فأقام معبدين: أحدهما فى بيت آيل فى الشمال، والآخر فى دان فى الجنوب. وهدف يربعام بن ناباط من ذلك الانفصال الدينى أيضا، ومنع القبائل الشمالية من الذهاب إلى الهيكل فى أورشليم. وأضاف إلى ذلك أنه أقام العجل الذهبى وطالب الناس بعبادته وكان تعلم ذلك من المصريين(١). ومن مظاهر الانفصال الدينى أيضا تغيير الاحتفال بالعيد فى اليوم الخامس عشر من الشهر الثامن.

أدى الانفصال السياسى والدينى من قبائل الشمال بقيادة يربعام بن نابط عن قبائل الجنوب بقيادة رحبعام بن سليمان إلى نشوب الحروب بينهما ، فحارب رحبعام ضد يربعام محاولاً استعادة القبائل المنفصلة، لكنه لم يستطع بسبب معاونة شيشنق ملك مصر ليربعام واستمرت الحروب بينهما طوال عصر يربعام(٢).

لم يقتصر عمل شيشنق على دعم يربعام فى تمرده ضد سليمان ورحبعام ، بل قام بمهاجمة مملكة يهوذا، وتعتبر هذه أول غزوة خارجية ضد مملكة يهوذا(٣) . استولى شيشنق أثناء هذه الغزوة استولى على أورشليم وبعض المدن الحصينة(٤)، وحفظت قائمة المدن التى احتلها شيشنق فى المصادر المقدسة فى الكرنك(٥). توضح القائمة المذكورة فى مصادر الكرنك المقدسة خط سير شيشنق فتذكر أنه خرج من غزة إلى جازر ودمر هذه المدينة واستمر فى طريقه إلى أيلون، وبيت حاران

وجبعون تجاه وادى الأردن[٦]. لم يكتف الملك شيشنق بما أخذه من مدينة يهوذا من غنائم، بل اتجه نحو مملكة الشمال ودمر معظم المدن الحصينة ليربعام الذى لجأ إليه من قبل[٧]. وفى طريق عودته إلى مصر احتل وادى العريش ومحنايم ثم توجه إلى بيت شان ووادى يزرعئيل ثم احتل مجدو، وعبر طريق وادى العراة إلى الساحل ثم عاد إلى مصر[٨]. وهكذا بدأت مصر استعادت جانبا من سمعتها الدولية القديمة كما استعادت صلاتها بفينيقيا وأمرائها[٩] .

وكان من أهم النتائج بعد غزوة شيشنق ليهوذا أن كرس رحبعام جهوده لتعزيز يهوذا وتقويتها، فعمل على تنظيم الحصون على طول الحدود الجنوبية والغربية لمملكته[١٠].

وبموت رحبعام وتولى أبيا الحكم خلفا له لم تنته الحرب بين مملكة الشمال ومملكة الجنوب. (أخبار الأيام الثانى ١٣ : ٢). فدارت الحرب التى بين يربعام وأبيا انتصر فيها أبيا واحتل بقية أرض بنيامين وجزء كبير من جنوب أفرايم[١١]. وذكرت قائمة مفصلة للمدن التى استولى عليها أبيا من يربعام فى سفر أخبار الأيام الثانى "وطارد أبيا يربعام وأخذ منه مدن بيت آيل وقراها وبشانه وقراها وعقرون وقراها[١٢] . ويرى "دوف نوف" أن هذا النصر الذى حققه أبيا على يربعام كان بمساعدة حليفه ملك آرام[١٣]، وباستثناء هذا الانتصار الذى حققه أبيا على يربعام لم يكن له أى نشاط سياسى أو دينى آخر.

وبموت أبيا ٩١١ ق.م تولى عرش مملكة يهوذا آسا ٩١١/٨٧١ق.م. وطبقا لرواية سفر أخبار الأيام الثانى قام الملك آسا بتشييد الحصون وإحاطة المدن بالأسوار والأبراج وجعل له جيشا من يهوذا وبنيامين (أخبار الأيام الثانى ١٤ : ٦-٨). وقام آسا ببعض التجديدات فى الجيش منها استخدام الرماح والتروس.

وفى حوالى ٩٠١/٩٠٠ ق.م – ٨٩٦/٨٩٥ق.م[١٤] غزت جيوش زارح الكوشى يهوذا ووصلت إلى مريشه[١٥]، وانتهت الحرب بين زارح الكوشى وآسا

بانتصار الأخير واحتلال جنوده كل أرض جرار[١٦]، كما استولى جنوده على غنائم كثيرة"... [١٧].

وفيما يتعلق بالعلاقة بين المملكتين زمن حكم آسا لم تحدث فى بداية حكمه حرب بين إسرائيل ويهوذا بسبب موت يربعام والانتصارات التى حققها الملك أبيا. كما أن أبيا خليفة رحبعام لم يستمر فى الحكم طويلا فاستفادت يهوذا من ثمار الانتصارات التى حققها أبيا[١٨] . ثم تجددت الحروب بين المملكتين مع بداية حكم بعشا على إسرائيل ، فاستعاد لإسرائيل جنوب جبل أفرايم[١٩] ، كما قضى بعشا على كل من بقى من أسرة يربعام مكونا أسرة ملكية جديدة من بيت يساكر، ثم هاجم بعد ذلك مملكة يهوذا فى حدودها الشمالية حتى وصل إلى الرامه[٢٠]. وفرض حصارا على آسا ملك إسرائيل، مما دعا آسا طلب المساعدة من بن هدد ملك آرام، الذى أرسل جيشا لآسا فضرب المدن المحصنة فى أرضى نفتالى[٢١]. وبسبب هذا الهجوم الذى قام به بن هدد ملك آرام تخلى بعشا ملك إسرائيل عن الرامه واستولى عليها آسا.

وقد عاصر آسا الملك أيلا بن بعشا من ملوك إسرائيل. لم يستمر أيلا طويلا فى الحكم حيث قضى عليه زمرى الذى حكم فقط لمدة سبعة أيام ومات منتحراً بعدها أسس عمرى أسرة ملكية جديدة. من أهم أعمال عمرى عقد علاقات ود مع مملكة صور ونقل العاصمة إلى السامرة. وبتولى أسرة عمرى لم ينته الفساد الدينى فى مملكة إسرائيل بل دخل طوراً جديداً من الانحراف الدينى الذى ظهر فيه تأثير علاقة المصاهرة مع مملكة صور، خاصة عبادة البعل.وفى عام ٨٧٣ ق.م مرض آسا ملك يهوذا وشاركه ابنه يهو شافاط فى الحكم وبموت آسا ٨٧١ق.م صار يهوشافاط ملكا على يهوذا.

ثانيا ــ اسرائيل ويهوذا تقارب وتعاون : الأسباب والنتائج

حكم يهوشافاط على يهوذا خلال الفترة ٨٧٣ــ٨٤٩ق.م منها عامان

٨٧١/٨٧٣ ق.م مع أبيه بعد مرضه، وبعد موت أبيه عام ٨٧١ق.م صار يحكم بمفرده على يهوذا. عاصر يهوشافاط كل من آحاب، آحزيا، ويهورام من ملوك إسرائيل[٢٢].

يعتبر يهوشافاط بن آسا ملك يهوذا من الملوك البارزين فى تاريخ مملكة الجنوب حيث طرأت عدة تغيرات فى زمنه، سواء فى مجال التنظيم الداخلى لمملكة يهوذا، أو ما يتعلق بالعلاقة بين مملكة الشمال ومملكة الجنوب.

بدأ يهوشافاط نشاطه السياسى بتنظيم حكومة إدارية منظمة فقسم يهوذا لاثنى عشر مقاطعة، وذلك طبقاً للصورة الموجودة فى يشوع ٩-١٠[٢٣]، ونصب على تلك المقاطعات موكلين كما كان فى أيام سليمان[٢٤]، وشملت هذه المقاطعات أماكن سبطى يهوذا وبنيامين وبعض مدن أفرايم التى استولى عليها آسا. هدف يهوشافاط من هذا التقسيم تنظيم جباية الضرائب[٢٥].أما ثانى أعمال يهوشافاط كان فى مجال القضاء والقانون حيث عين قضاة فى المدن الحصينة، وأقام بيتا للقضاء العالى فى أورشليم واشترك فيه الكهنة ورؤساء الآباء واللاويين[٢٦] . كما عمل على نشر التوراة .

ثم قام يهوشافاط أيضا بتنظيم الجيش على أساس التنظيم الإدارى الذى نظم به المملكة، فقسم الجيش إلى ست فرق خمس منها مستعدة لوقت الحاجة، منها ثلاث من يهوذا واثنان من بنيامين[٢٧]. وقد ذكرت قائمة مفصلة بأسماء قادة هذه الفرق، أما الفرقة السادسة فوجدت فى المدن المحصنة[٢٨]. أما الجيش الدائم للملك فكان فى أورشليم[٢٩]، وزود يهوشافاط يهوذا بسلاح الخيل[٣٠]. وبالإضافة إلى تلك الإصلاحات التى قام بها يهوشافاط قام أيضا بتشييد الحصون والقلاع (أخبار الأيام الثانى ١٧ :١٢) كما أنه أزال بيوت المرتفعات من يهوذا (أخبار الأيام الثانى ١٧ :٦). مثلت هذه الإصلاحات التى قام بها يهوشافاط عبئا على خزينة الدولة[٣١].

أما علاقة مملكتى يهوذا وإسرائيل ببعضهما البعض فقد طرأت تغييرات زمن

حكم الملك يهوشافاط، فبدلا من سياسة الحرب والتنافس التى استمرت بين المملكتين طوال حكم رحبعام وآسا وأبيا مما أضعف قوة المملكتين سياسيا واقتصاديا، بدأت سياسة جديدة بين المملكتين بداية من تأسيس بيت عمرى فى الشمال وتولى يهوشافاط الحكم فى الجنوب. فالعلاقات العدائية بين يهوذا وإسرائيل انتهت مع انتهاء بيت يربعام بن ناباط على إسرائيل، وتتضح مظاهر التغير فى العلاقات بين المملكتين زمن بيت عمرى فى الشمال ويهوشافاط فى الجنوب فى عدة مظاهر:منها علاقة المصاهرة بين بيت عمرى وبيت الملك يهوشافاط. بدأت هذه العلاقة بأن قطع يهوشافاط عهدا مع آحاب ملك إسرائيل وزوج يهوشافاط ابنه يهورام من عثليا بنت آحاب وآزبيل بنت ملك صيدا الذى قطع معه عمرى معاهدة[٣٢]. وقد مثلت علاقة المصاهرة بين يهوشافاط ملك يهوذا وآحاب ملك إسرائيل رمزا لنهاية الحروب والنزاع بين المملكتين [٣٣]. ومن مظاهر التعاون بين المملكتين أيضا مشاركة يهوشافاط ملك يهوذا إلى جانب آحاب ملك إسرائيل فى المعركة ضد آرام[٣٤]، التى دارت فى راموت جلعاد فى صيف ٨٥٣ق.م[٣٥]. انتهت هذه الحرب بهزيمة الحلف وموت آحاب ملك إسرائيل وعودة يهوشافاط ملك يهوذا فارا إلى أورشليم[٣٦]. وبعد موت آحاب فى هذه المعركة تولى آحزيا الحكم على إسرائيل، غير أنه كان ضعيف الشخصية فلم يقم بأى محاولة لاسترداد ما قد سلبه الآراميون.

وبتولى يهورام بن آحاب الحكم على إسرائيل نشبت حرب بينه وبين ميشع ملك مؤاب فانضم يهوشافاط إلى يهورام فى هذه الحرب التى انتهت لصالح ميشع ملك مؤاب، الذى حرر مؤاب كلية من تحت سيادة إسرائيل واحتل عدة مقاطعات فى جنوب جلعاد[٣٧]. ورغم أن الحلف بين يهوشافاط وملوك إسرائيل قد أدى إلى انضمام يهوذا إلى جانب إسرائيل فى هذه الحروب الخاسرة فإنه جلب أيام سلامة ورفاهية للمملكتين[٣٨]، حيث نشطت التجارة فى زمن يهوشافاط ملك يهوذا وعمل سفنا تسير إلى ترشيش لجلب الأشياء الثمينة[٣٩].

ومن خلال العلاقة بين إسرائيل ويهوذا زمن يهوشافاط يبدو أن الملك يهوشافاط فهم جيدا أن العلاقات الحسنة مع جيرانه أفضل من العلاقات العدائية، وبذلك ضمن ليهوذا الأمن والسلام طوال فترة حكمه. فيهوشافاط أول ملك من ملوك يهوذا يبدأ علاقة الود والسلام مع ملوك مملكة الشمال .

خشى الملك يهوشافاط من النزاع داخل البيت الملكى بعد وفاته، ولهذا نصب ابنه يهورام ملكا وهو لا يزال حيا وعوض أخوته بالغنى (أخبار الأيام الثانى ٢١: ٢-٤). حكم يهورام سويا مع أبيه ولقب بملك فى السنة السابعة عشرة لحكم والده ولكنه توج فى السنة الثالثة والعشرين من حكم والده[٤٠]. كان أول الأعمال التى قام بها يهورام بن يهوشافاط بعد وفاة أبيه قتل جميع أخوته[٤١]، خوفا من أن يستغلوا تعيينهم على مدن الحدود ويتمردوا ضده[٤٢]، وكان يهوشافاط قد عينهم فى هذه المواقع ليعوضهم عن الحكم الذى أعطاه ليهورام ابنه البكر.

سبق الإشارة إلى أن يهوشافاط قد زوج عثليا بنت آحاب ملك إسرائيل لابنه يهورام، وكان من الطبيعى أن يظهر تأثير هذه العلاقة أيام يهورام بن يهوشافاط فتسلل إلى أورشليم التأثير الدينى والروحى للسامره[٤٣]، كما بنيت أيضا بيوت المرتفعات وبيت البعل فى أورشليم (أخبار الأيام الثانى ٢١: ١١).

كان يهورام ملكا ضعيفا ففى عصره شهدت مملكة الجنوب الهزيمة تلو الأخرى، فالأدوميون الذين ثاروا أيام يهوشافاط ولم يثمر تمردهم عن شئ، ثاروا من جديد زمن ابنه يهورام واستطاعوا أن يزيلوا عنهم ظلم يهوذا[٤٤]، ولم يتحرر الأدوميون فقط من حكم يهوذا، بل إن ملك أدوم حاول أن يحتل جنوب يهوذا غير أن يهورام ألحق به هزيمة فى سيعور التى تقع شمال حبرون[٤٥].

وأثارت حرب الأدوميين ضد يهورام الفلسطينيين واستطاعوا أن يستولوا على لبنة[٤٦] وفى عام ٨٤٥ق.م أعاد ملك آرام دمشق الحلف ضد الأشوريين واشترك فيه يهورام إلى جانب ملك إسرائيل وانتهت الحرب هذه المرة لصالح

الأشوريين[٤٧]، وبذلك فقدت يهوذا سلطانها فى عدة مدن حيث استقل الأدوميون وصار لهم ملك، كما استقلت لبنة، وهزم فى الحرب التى اشترك فيها فى الحلف الذى أقامه ملك آرام، وفى نهاية أيامه مرض الملك يهورام(أخبار الأيام الثانى ٢١ : ١٨)وملك سكان أورشليم ابنة آحزيا ملكا عليهم (أخبار الأيام الثانى ٢٢ : ١).

ملك (يهو آحاز) آحزيا بن يهورام لمدة عام ، وكان حكمه معاصرا ليهورام بن آحاب ملك إسرائيل (الملوك الثانى ٨ : ٢٥) . وكانت العلاقات بين المملكتين منذ عصر يهوشافاط ملك يهوذا علاقات تعاون، ووصلت العلاقة بينهما إلى ذروتها من خلال المصاهرة بينهما، وزاد ذلك من تأثير نفوذ مملكة إسرائيل على مملكة يهوذا، ووصل هذا التأثير إلى عبادة البعل الذى صار رمزا للوحدة مع المملكة الشمالية[٤٨].

تابع آحزيا أسلوب سياسة التقارب والتعاون مع يهورام بن أحاب ملك إسرائيل وانضم إليه فى حربه ضد حزائيل ملك آرام . وأثناء هذه الحرب بدأت الثورة ضد بيت عمرى بقيادة ياهو حوالى ٨٤١ق.م[٤٩] وانتهت بإنهاء حكم بيت عمرى وبداية حكم بيت ياهو.

قتل آحزيا أثناء ثورة ياهو ملك إسرائيل ومهما يكن من أمر العلاقة بين إسرائيل ويهوذا طوال فترة حكم بيت عمرى إلا أنه يمكن القول بأن العلاقة بينهما لم تثمر شيئا بالنسبة ليهوذا سوى أنها ضمنت عدم الحرب مع إسرائيل. وعلى العكس من ذلك فقد استفادت إسرائيل من هذه العلاقة حيث ضمنت تحالف يهوذا معها فى العديد من الحروب التى خاضها ملوك إسرائيل.

وبثورة ياهو عام ٨٤١ق.م ضد بيت عمرى واستيلائه على حكم إسرائيل وقتله آحزيا بن يهورام ملك يهوذا، أبادت عثليا جميع النسل الملكى واستولت على زمام الحكم[٥٠]، أما يهوشبعة زوجة الكاهن يهوياداع، استطاعت أن تخبئ أحد أبناء آحزيا وهو يوآش الذى كان لا يزال طفلا رضيعا.

وخلال فترة إخفاء يوآش — ست سنوات تقريبا — كانت عثليا تحكم على يهوذا خلال الفترة ٨٤١/٨٣٥ق.م[٥١]، وخلال فترة حكمها عبدت البعل فى الأماكن المرتفعة ومعها متان الكاهن، كما فضلت الأسماء الفينيقية. ويعتقد أن البعل كان هو نفسه ملقارت الذى كانت عبادته منتشرة فى إسرائيل وآرام[٥٢]. ولم يكن مقبولا عند الجنوبيين وخاصة رجال الدين أن تحكم عليهم ملكة من إسرائيل، فقام يهوياداع الكاهن بتدبير مكيدة لعثليا بهدف إعادة الملك إلى بيت داوود وكان ذلك حوالى عام ٨٣٦ ق.م ونجحت الخطة التى رسمها يهوياداع الكاهن. وقد ثارت عثليا لهذا العمل "فشقت عثلثا ثيابها وقالت خيانة خيانة"[٥٣]. ثم قطع يهوياداع عهدا مع الكهنة واللاويين ورؤساء الشعب وملكوا عليهم يوآش بن آحزيا . وبعد ذلك أصدر يهوياداع أمرا بقتل عثليا، وكان ذلك تأكيدا لنهاية لعلاقات السلام بين المملكتين.

وفيما يتعلق بأوضاع مملكة الشمال فكان من أهم نتائج ثورة ياهو إزالة كل مراكز العبادات الوثنية والقضاء على أنبياء وكهنة الوثنية (ملوك ثان ٨ :١٠-١٣). وأثناء حكم ياهو قام حزائيل ملك آرام عام ٨١٣ق .م بغزو مملكة إفرايم من غرب الأردن وانتقل إليها عن طريق وادى يزرعئيل وبيت شان وشاران ووصل إلى جت[٥٤]، واستولى على كل أرض مملكة إسرائيل الغربية[٥٥]. وكان لهذا الانتصار أثره على يوآش ملك يهوذا الذى أسرع بدفع ضرائب كثيرة للملك آرام[٥٦] لينقذ أورشليم من الهجوم . ورغم ذلك لم يقم الآراميون بغزو يهوذا فى نهاية حكم يوآش وأخذوا منه غنيمة كثيرة (أخبار الأيام الثانى ٢٤ : ٢٣) .

أما فى يهوذا قام الملك يوآش بتأثير من يهوياداع الكاهن بتجديد معبد الرب فى أورشليم. ويعتبر هذا العمل الأول من نوعه حيث لم ترد أى إشارة عن ترميم وتجديد هيكل الرب بعد أن شيده سليمان، وربما يكون قد قصد من هذا الترميم تطهير المعبد وتجديده مما أدخله الإسرائيليون إلى الهيكل أثناء العلاقات الودية بين

المملكتين ، لكن يبدو أن الملك يوآش قد ارتد عن الأعمال الإصلاحية التى بدأها وذلك بعد موت يهويا داع الكاهن. ثم مرض يوآش وقتل بيد اثنين من عبيده وملك بعده آمصيا.

ثالثا ــ ظهور الأشوريين وأثره على مملكتى إسرائيل ويهوذا

بدأ صعود قوة الأشوريين مرة ثانية من جديد وحاولت أشور بسط نفوذها على المنطقة السورية الفلسطينية، بل وصلت أطماعها إلى مصر مما أدى إلى وقوع صراعات بين الأشوريين والمصريين، وقد أثر ذلك بدوره على أوضاع المنطقة السورية الفلسطينية، وكان لصعود أشور مرة ثانية تأثيره على الأوضاع فى مملكتى إسرائيل ويهوذا بداية من حكم أمصيا.

بدأ أمصيا حكمه بالثأر لدم أبيه الذى قتل بيد اثنين من عبيده: "ولما تثبتت المملكة عليه قتل عبيده الذين قتلوا أباه الملك"[٥٧]. بهذا العمل بدأ الهدوء يعود ثانية إلى يهوذا [٥٨]. ولكى يثبت أمصيا حكمه دعم جيشه "وأستأجر من إسرائيل مئة ألف جبار بأس بمئة وزنه من الفضة"[٥٩] ، كما حاول محاربة أدوم غير أنه اقلع عن هذه الفكرة لأنه ثبت له مدى قوة جيش أدوم . غير أن فكرة غزو أدوم كانت تسيطر على أمصيا فقام بغزوة ناجحة إلى شمال أدوم وضم سالع[٦٠].

يرى م. يافين أن ضرب أمصيا لأدوم هدفه بسط نفوذه على ملتقى الطرق التجارية القادمة من جنوب بلاد العرب، والاستيلاء على مصادر المعادن التى فى النقب والصحراء[٦١]. وقد استغل جند إسرائيل الذين أرجعهم أمصيا فرصة محاربته لأدوم وهاجموا مدن يهوذا [٦٢]. وفى الوقت نفسه استعاد يوآش ملك إسرائيل مناطق عديدة من بن هدد بن حزائيل الذى هزم يهو آحاز ملك إسرائيل[٦٣] وأبيد معظم شعبه آنذاك. ولذا تقوت المملكتان، وأدى هذا إلى مصادمات دامية بينهما، نتج عنها هزيمة أمصيا ووصل يوآش إلى أورشليم وحطم جزء من سور المدينة[٦٤] وأخذ أمصيا نفسه مسببا حوالى ٧٨٤ ق.م[٦٥] ومات

أمصيا مقتولا فى لخيش بعد عودته من السبى (أخبار الأيام الثانى ٢٥ : ٢٧) .

تولى عزيا (عزريا/ عزياهو)) حكم يهوذا بعد مقتل أمصيا[٦٦]، ونعمت يهوذا أثناء حكمه بفترة من الهدوء فبلغت يهوذا إلى قمة سيادتها [٦٧]، فأسس جيشا قويا وسلحه بمختلف الأسلحة، كما أنه بنى الحصون والأبراج وحفر الآبار (أخبار الأيام الثانى ٢٦: ٩-١٠) وحارب الفلسطينيين والعمونيين وانتصر عليهم وأرسل العمونيون له هدايا. وانتشر اسمه حتى وصل إلى مصر (أخبار الأيام الثانى ٢٦ : ٦-٧) .

وكان لانتصارات عزيا المتتالية أثرها المباشر على المملكة ، فاستطاع عزيا السيطرة على الطرق التجارية مرة أخرى ، وبنى العديد من المدن والحصون والقلاع لحراسة الطرق التجارية من أورشليم إلى إيلات[٦٨] . كذلك زاد النشاط الزراعى زمن عزيا فزرعت الغلات الزراعية فى السهل والوادى وأدى ذلك إلى وفرة فى المنتجات الزراعية مما فتح باب التبادل التجارى على الطريق التجارى البرى وطريق البحر الأحمر والبحر المتوسط[٦٩].

أما فيما يتعلق بالعلاقات بين مملكة يهوذا وإسرائيل زمن عزيا، فكان عزيا معاصرا له يربعام الثانى من ملوك إسرائيل، الذى وسع حدود مملكته فأخضع ملك دمشق وجعل حاكمها خاضعا له كما استولى على مملكة حماه[٧٠]، ولم يقم بأى اصلاحات دينية بل استمر فى الوثنية التى أسسها يربعام بن ناباط. استفادت كل من إسرائيل ويهوذا فى عصرى عزيا ويربعام الثانى من ثمار انتصاراتهما الخارجية وعدم حدوث مصادمات بين المملكتين.

وفى المجال الدينى أراد عزيا أن يغتصب سلطة الكهنة بإصعاد المحرقات محاولا التشبه بهذا العمل بالملك سليمان[٧١] إلا أن الكهنه انتصروا عليه حين مرض حوالى عام٧٥٠ ق.م وعين يوثام وصيا شرعيا مكانه وبقى عزيا الحاكم الحقيقى[٧٢].

بعد أن مرض عزيا عام٧٥٠ق.م تولى يوثام الحكم أى أنه شارك عزيا فى الحكم. وقد ملك يوثام على يهوذا فى السنة الثانية لحكم فقح بن رمليا على إسرائيل، وتابع يوثام سياسة أبيه فبنى الحصون وشيد القلاع والأبراج وحارب ملك عمون وأخضعه(٧٣).رغم انتصاره وإخضاعه ملك عمون صعد عليه كل من رصين ملك آرام، وفقح بن رمليا ملك إسرائيل (الملوك الثانى ١٥ : ٣٧) وحاصراه ولكنهما فشلا فى تلك المحاولة(٧٤) .

وأثناء هذه الفترة التاريخية اعتلى عرش أشور تجلات فلناسر الثالث ٧٢٢/٧٤٠ق.م(٧٥) ووجه جيوشه إلى شمال سوريا ووسطها(٧٦)، محاولا بذلك استعادة مجد أشور القديم وتوسيع حدود ملكته، فأسرع معظم ملوك سوريا وفلسطين لدفع ضرائب كثيرة للملك آشور(٧٧)، وأثناء ذلك صعد على عرش مملكة يهوذا آحاز بن يوثام حوالى عام ٧٤٣ ق.م(٧٨).

لم تعجب هذه السياسة التى اتبعها تجلات فلناسر بعض ملوك المنطقة السورية ـــ الفلسطينية فتزعم كل من فقح ملك إسرائيل ورصين ملك دمشق حلفا ضد أشور، أما آحاز ملك يهوذا فرفض الاندماج فى هذا الحلف ضد أشور(٧٩)، وقد شجعه فى تلك السياسة النبى إشعيا بن أموص(٨٠). ونتيجة تلك السياسة التى انتهجها آحاز، قام كل من فقح ورصين بمهاجمة آحاز الذى طلب معونة أشور(٨١)، ولهذا السبب قام تجلات فلناسر بغزوتيه ٧٣٣، ٧٣٢ ق.م (٨٢) ، واحتل آرام دمشق وسقطت عام عام ٧٣٢ ق.م وقتل رصين(٨٣)، كما احتل معظم مملكة إسرائيل وسبى كثيرا منهم، وقسم أرض إسرائيل إلى ثلاثة مناطق هى مجدو، وشاران وجلعاد(٨٤). باحتلال تجلات فلناسر معظم أرض إسرائيل تولى عرش المملكة هوشع بن أيله، وقد عينه تجلات فلناسر، فخضع بالتالى الملك هوشع لملك أشور ودفع له الجزية.

أما فيما يتعلق بالوضع فى يهوذا فقد أنقذ آحاز أورشليم من الدمار لعدم

مساهمته فى الحلف ضد أشور واستمر فى دفع ضريبة لتجلات فلناسر[٨٥]، كما أنه بنى مذبحا فى الهيكل فى أورشليم كصورة المذبح الذى رآه فى دمشق أثناء امتثاله أمام ملك أشور[٨٦]، وأدخل عبادات أشورية وآرامية إلى أورشليم[٨٧] . ونصب فى الهيكل الفرسان والعربات، لإله الشمس الأشورى[٨٨]. بذلك ظهر أثر خضوع آحاز للملك أشور، غير أن هذا التأثير قد اختفى زمن حزقيا بن آحاز، وذلك بعد أن تولى حزقيا الحكم بعد موت آحاز. يتضح أنه نتيجة خضوع آحاز لسيادة آشور تجلات فلناسر زاد ذلك من تأثير الثقافة الأشورية فى يهوذا، واختلف هذا الوضع زمن الملك حزقيا.

تولى حزقيا حكم يهوذا بعد موت آحاز (٧٢٧/٦٩٨ق.م) [٨٩]، وعندما تولى الحكم قام بسلسلة من الإصلاحات الدينية فأزال بيوت المرتفعات وأبطل العديد من العبادات الأجنبية التى تسللت إلى يهوذا من قبل، كما دمر المذبح الذى بناه آحاز فى أورشليم.

لم يقتصر عمل حزقيا على إزالة العبادات الوثنية، بل قام بعمل الطقوس والأعياد الدينية واشترك فيها الكهنه (أخبار الأيام الثانى ٢٩-٣٠). بدأ حزقيا عمله بتطهير العبادة فى أورشليم (أخبارالأيام ١٤:٣٠)، واستمرت عملية التطهير فى يهوذا وبنيامين وتوسعت حتى شملت إفرايم ومنسى (أخبار الأيام الثانى٣١: ١).

ومن الناحية السياسية تابع حزقيا سياسة آحاز على الأقل فى السنوات الأولى من حكمه، فاستمر فى دفع الجزية لأشور. وعندما مات تجلات فلناسر وتولى ابنه شلمناصر على عرش أشور ثار عليه هوشع بن أيله حوالى ٧٢٤ق.م[٩٠]، وشارك هوشع بن أيله ملوك المدن الصيدونية[٩١]، وقد اعتمد هوشع فى تمرده على أشور بمصر[٩٢] . أما حزقيا ملك يهوذا فرفض الاشتراك فى هذا الحلف[٩٣]، كما رفض من قبله آحاز الانضمام إلى حلف فقح ورصين. وعندما علم شلمناصر بذلك حاصر إسرائيل واستمر الحصار فترة ولم تفتح إسرائيل أو صيدا أبوابها أمامه،

وبموت شلمناصر عام ٧٢٢ ق.م وصعود سرجون الثانى ظل محاصرا لإسرائيل حتى سقطت ٧٢٢/ ٧٢١ق.م(٩٤).

سبى سرجون الثانى ٢٧ ألفا من إسرائيل إلى أشور(٩٥) ،وبسقوط السامرة عام ٧٢١ ق.م ينتهى الوجود السياسى لمملكة إسرائيل الشمالية، وخلال فترة الأحداث الأخيرة لإسرائيل منذ تمرد هوشع حوالى ٧٢٤ ق.م إلى سقوط السامرة ٧٢١ ق.م لم يتدخل حزقيا ملك يهوذا فى تلك الأحداث . وقد ساهمت سياسة حزقيا هذه فى إنقاذ يهوذا من الخراب الذى حدث للسامرة واستمرت يهوذا فى الوجود إلى أن وقع السبى البابلى عام ٥٨٦ق.م.

لم يكتف سرجون الثانى ملك أشور بالاستيلاء على مملكة الشمال وتخريب السامره فحسب، بل استولى على أشدود حوالى عام ٧١١ ق.م(٩٦) وسبى من سكانها إلى أشور(٩٧) ، وفى الوقت نفسه صارت يهوذا قوة عسكرية هامة فى المنطقة، لأنها المملكة الوحيدة التى لم يمسها السوء، ورغم من أنها كانت خاضعة لأشور فإنها كانت قوية داخليا وخارجيا(٩٨)، وأصبحت فى موقف الدولة الهامة بين أشور ومصر(٩٩).

وبموت سرجون وصعود سنخريب، وجد حزقيا الفرصة مواتية لإقامة علاقات قوية امتدت من بابل التى تولى حكمها مردوك بلادن، وحتى مصر التى تأسست فيها الأسرة الخامسة والعشرين الكوشية ذات السيادة فى آسيا الغربية(١٠٠). وكان من نتيجة هذه العلاقات الطيبة أن قام حزقيا وضم إليه ملوك صيدون وفلسطين وتزعم الحلف معهم(١٠١). ووسع حدوده تجاه الجنوب حتى وصل إلى النقب(١٠٢)، كما وصل نفوذه إلى الجليل(١٠٣).

حصن حزقيا أورشليم فشق النفق الممتد من عين جيحون إلى بركة السلوان وهو المعروف بنفق السلوان أو نفق حزقيا هو(١٠٤). وقد عثر على كشف أثرى سنة ١٨٨٠م يدل على انتهاء العمل فى النفق وهو مكتوب – النقش – بالخط

العبرى القديم وهو محفوظ حاليا فى متحف الآثار بإسطنبول[١٠٥]، وكان الغرض من إنشاء هذا النفق توصيل المياه إلى أورشليم خوفا من أى اعتداء أو حصار يمنع عنها المياه.

أثناء تزعم حزقيا للحلف ضد أشور، استطاع سنخريب أن يقمع الثورة فى بابل[١٠٦]. ثم توجه بعد ذلك إلى بقية الحلف الذى أقامه حزقيا، فقام فى سنة ٧٠١ ق.م بغزوة إلى أرض كنعان، واستولى وهو فى طريقه على يافا وجيرانها على حدود عسقلان كما أخضع الصيدونيين[١٠٧]، وأثناء ذلك وصلت معونة المصريين إلى الحلف، وقامت الحرب بين المصريين والأشوريين بالقرب من منطقة النقب وهزم المصريون وخضعت عقرون لآشور[١٠٨].وبتلك الانتصارات المتالية لم يبق أمام سنخريب سوى يهوذا، فبدأ يتوغل فى أرض يهوذا ويخترق مدنها واحدة تلو الأخرى حتى وصل إلى مدينة أورشليم لكنه بقى فى لخيش[١٠٩].

وأثناء وجود سنخريب فى لخيش أرسل مجموعة لمهاجمة أورشليم، وحاصرت تلك المجموعة أورشليم لكنها لم تستطيع أن تدخلها ولم يستسلم حزقيا لهذا الحصار، ولكى ينقذ حزقيا أورشليم من الدمار أرسل الجزية لسنخريب [١١٠]. استمر حزقيا يدفع الجزية لأشور ويرى "بن ساسون" أن السبب فى انقاذ يهوذا هو أن سنخريب اضطر للانسحاب فجأة وينهى الحصار أما بسبب أحداث فى بابل عجلت بعودته إلى نينوى أو لسبب آخر[١١١]. ولهذا فإن أورشليم لم يصبها سوء رغم أن يهوذا كانت هى مركز الثورة ضد أشور.

وأثناء فترة حكم حزقيا على يهوذا ظهر النبى أشعيا . وكانت بداية نشاطه سنة ٧٣٣/٧٣٤ق.م[١١٢]، وفترة الملك حزقيا هى ألمع فترات النبى إشعيا، وشجع إشعيا الملك حزقيا على رفض مطالب سنخريب ويسجل أشعيا بن آموص جهوده السياسية زمن الملك حزقيا فى الاصحاحات ٢٨-٣١ من سفره ، ويشرح "دوف نوف" هذه الفترة فيقول "إن هذه الأيام لها ميزة واحدة فى مركز الحياة

السياسية والدينية فى يهوذا حيث ضم النشيطين جنبا إلى جنب فقـد وصـل إشـعيا فى أيام حزقيا إلى قمة نشاطه وأصبح إشعيا القائد الروحى للأمة ومعلمهـا ولم يكـن نـبى قبله أو بعده أثر تأثيراً حقاً على حياة الشعب مثله"(١١٣).

الفصل الخامس

تاريخ يهوذا من الغزو الأشورى لمملكة إسرائيل حتى الغزو الكلدانى لمملكة يهوذا

كانت نهاية مملكة اسرائيل على يد سرجون الثانى عام ٧٢١/٧٢٢ ق.م ملك أشور الذى دمرها وسبى بعض سكانها ، ومنذ ذلك الوقت انتهى تاريخ مملكة إسرائيل من ككيان سياسى. وكان معاصرا لدمار السامرة من ملوك يهوذا الملك حزقيا ٧٢٧/٦٩٨ق.م ، الذى لم يشترك فى الأحداث التى حدثت لمملكة إسرائيل، وبهذه السياسة التى اتبعها حزقيا استطاع أن ينقذ يهوذا من الدمار الذى حدث للسامرة، وظل يدفع الجزية لملك أشور، إلا أنه حاول التمرد، واستطاع أن يتزعم الثورة ضد أشور ، مما جعل سنخريب يحاصرها بقواته، لكنها أنقذت من غضب أشور، الذى فك الحصار فجأة ، واستمر الملك حزقيا يدفع الجزية لأشور .

ومع موت حزقيا وتولى ابنه منسى الحكم عام ٥٩٨ق.م وحتى دمار أورشليم حوالى ٥٨٦ق.م، ظلت مملكة يهوذا خلال هذه الفترة التاريخية تدخل دوامة الصراع بين قوة أشور وقوة مصر وقوة بابل التى عادت إلى مسرح الأحداث التاريخية من جديد. أثر الصراع بين هذه القوى الثلاثة على مملكة يهوذا تأثيرا كبيرا، وأشهر ملوك يهوذا خلال هذه الفترة الملك يوشيا الذى عاصر الكثير من الأحداث التاريخية فى منطقة الشرق الأدنى القديم، أما الملوك الذين تولوا من بعده كانوا ملوكا ضعافا، كما انتهت أشور كقوة سياسية وخضع ملوك يهوذا الأواخر إما لقوة مصر فى الجنوب أو لقوة بابل فى الشمال، وظل هذا الوضع إلى أن حدث الغزو البابلى لأورشليم حوالى ٥٨٦ق.م الذى انتهى بدمار أورشليم، وخلال

هذه الفترة التاريخية ظهر عدد من الأنبياء الذين لعبوا دورا مهما فى الحياة السياسية لمملكة يهوذا وبرز منهم النبى إرميا والنبى حزقيال وكان لهما دور مهم فى تاريخ يهوذا قبيل الغزو البابلى وأثناء الغزو نفسه وارتبطت خلال هذه الفترة التاريخية الحياة الاجتماعية والدينية بالحياة السياسية .ونقدم هنا عرضا لأعمال ملوك يهوذا من سقوط السامرة على أيد الأشوريين إلى دمار أورشليم على يد البابليين.

أولا ــ حكام يهوذا فى أواخر العصر الأشورى

بعد وفاة حزقيا تولى الحكم ابنه منسى الذى استمر حكمه خمسة وخمسين عاما، كان منسى قد تولى العرش وعمره اثنا عشرة سنة[1] ، أى أنه كان صغير السن عندما تولى الحكم . ولهذا السبب يرى "دِوف نوف وجِريتس" أن الذى حكم يهوذا – على الأقل فى بداية حكمه – سادة المملكة ومن بينهم معارضى إصلاحات حزقيا، وشاركهم فى الحكم الشيوخ الباقون من حكم آحاز. وقد حكم هؤلاء طبقا لأغراضهم[2]. وقد حدث ذلك من قبل زمن يوآش، حيث أدار يهوياداع الكاهن شئون المملكة. وقد استطاع معارضو إصلاحات حزقيا والشيوخ الموالين لآحاز التأثير على سياسة الملك منسى . يتضح هذا التأثير فى أن الملك منسى بنى بيوتا فى المرتفعات التى هدمها حزقيا من قبل، وأقام مذابح للبعليم وسفك الدماء واضطهد الأنبياء (أخبار الأيام الثانى ٣٣ :١ – ٤، الملوك الثانى ٢١ : ١٦). كما أدخل إلى المعبد عبادات فينيقية وسوريه ومن المحتمل أشوريه[3].

ومع بداية حكم منسى وصلت الإمبراطورية الأشورية لذروة مجدها وتوسعاها[4]، حيث هاجم سنخريب بابل ودمرها كما بسط سلطانه على الممالك الفينيقية، كما هاجم مصر وهزمها، ودمر أسرحدون (٦٨٠/٦٦٩ق.م) صيدون ٦٧٧ق.م وحولها إلى أقليم أشورى[5]، كما قام بعدة غزوات على مصر، واستعان

وهو فى طريقة إلى مصر بجيوش الممالك الخاضعة لــه ومــن بينــها جــيش منســى[٦] ، واحتل مصر سنة ٦٧١ق.م[٧]. وبذلك صارت مصــر خاضــعة لأشــور فتــرة مــن الزمن، واستطاع آشور بانيبال خليفة سنخريب الاحتفاظ بسيادة أشــور علــى مصــر حتى عام ٦٥٥ق.م حين استعاد لها بسماتيك الأول حريتها واستقلالها[٨].

وبتدمير صيدون عام ٦٧٧ ق.م واحتلال مصر عــام ٦٧١ق.م ســيطرت أشــور على الطريق التجارى، وتخلصت من أكــبر منافســيها وأعــدائها ـ مصــر ـ الــتى كانت تشجع دائما التمرد ضد أشور، وبذلك زادت قوة أشور.

وكان من نتائج هذه الانتصــارات للأشــوريين خضــوع منســى ملــك يهــوذا للسيادة الأشورية، وإدخاله العديدات، مــن العبــادات الأجنبيــة إلى يهــوذا واســتمر هذا الوضع أيضا زمن ابنه آمون ٦٤١/٦٤٠ق.م[٩]، الذى مــات مقتــولا فى الســنة الثانية من ملكه[١٠].

استطاعت مملكة يهوذا أن تعيش فى ســلام خــلال فتــرة حكــم منســى وذلــك بخضوعها التام لأشور والذى وصل إلى التأثير الدينى على يهــوذا الأمــر الــذى أثــار سخط سكان يهوذا، وخصوصا بعدما تحــررت مصــر مــن ســيطرة أشــور فى عهــد بسماتيك الأول. وتتضح معارضة الشعب فى سياسة الخضــوع لأشــور بقتــل آمــون بــن منســى الــذى اتبــع سياســة أبيــه فى الخضــوع لأشــور، وتوليــة يوشــيا ٦٤٠/٦٠٩ق.م الحكم على يهوذا. بتولى يوشيا تبدأ فتــرة جديــدة فى تــاريخ يهــوذا فى المجالات السياسية والعقائديــة والثقافيــة، وقــد ســاعد علــى ذلــك التطــورات الداخلية والتغييرات السياسية فى الساحة الدولية.

بدأ يوشيا نشاطه بالإصلاحات الدينية التى أفسدها من قبل منســى وابنــه آمــون، فكانت أول أعمال الملك يوشيا أن طلب من الجماعــة عبــادة الــرب بعــد أن تركــه أبناء يهوذا زمن منسى وآمون، وكان ذلــك فىالســنة الثامنــة مــن حكمــه (أخبــار

الأيام الثانى ٣٤ :٨). تبع ذلك الخطوة الثانية عام ٦٢٨ق.م[١١] والمتمثلة فى تطهير يهوذا من العبادات الغريبة التى أدخلها منسى من قبل. بدأ يوشيا عملية التطهير لأورشليم ويهوذا أولا، ثم كل مدن إسرائيل فشملت مدن أفرايم وشمعون ووصلت إلى نفتالى[١٢]، وكان هذا بمثابة رمز لقوة يهوذا وتحررها من ظلم أشور[١٣]. ساعد يوشيا على هذه الأعمال ضعف قوة أشور وثورات بابل وميديا ضدها، وهجوم مصر عليها. والمرحلة الثالثة من مراحل إصلاحات يوشيا فى المجال الدينى كان فى السنة الثامنة عشرة من حكمه عندما اكتشف كتاب العهد بيد حلقيا الكاهن[١٤] وكان ذلك حوالى ٦٢٢ ق.م[١٥].

كان لاكتشاف كتاب العهد صدى كبير فى يهوذا وأمر الملك يوشيا بقراءة الكتاب على جميع الجماعة، وأثر ذلك تأثيرا حاسما على الاعتقاد الدينى وطابع الثقافة الروحية فى يهوذا[١٦]، واحتفل فى عصر يوشيا بعيد الفصح، وعمل هذا العيد بفرح شديد، بل إنه لم يعمل مثله من أيام الملك داود[١٧]، وعمل بحماس وغيره قومية لم يكن لها مثيل من قبل[١٨]. ركز الملك يوشيا على عبادة الرب فى الهيكل فى أورشليم، ومنع عبادة أى آلهة أجنبية فى أى مكان وفى أى صورة[١٩].

بتلك الاصلاحات التى قام بها الملك يوشيا يعتبر من أشهر قادة التطويز الدينى فى مملكة يهوذا[٢٠]، كما أن برنامج الإصلاح الذى عمله يوشيا يعتبر أحد أسس البعث القومى والثقافى ليهوذا فى أواخر عهدها[٢١].

لم يهتم الملك يوشيا بالاصلاحات الدينية فحسب، بل استطاع أن ينتهز فرصة ازدياد قوة مصر وبابل وضعف قوة أشور خلال فترة حكمه ورفع يهوذا إلى دولة مستقلة ذات طابع قومى بارز[٢٢]، وازداد نفوذه خارج يهوذا[٢٣] فقام بتوسيع مملكته خارج حدودها، ووصلت المرحلة الأولى من توسعاته من جبع فى جبل أفرايم حتى بئر سبع فى الجنوب[٢٤]، كما بسط نفوذه على بعض مناطق

الجليل[٢٥]، ووصل حتى وادى يزرعئيل[٢٦]. وبهذه العمليات التوسعية للملك يوشيا استطاع أن يبسط سلطانه على أورشليم وما تبقى من مملكة إسرائيل، كما وسع حدوده خارج أورشليم وإسرائيل، فاستولى على المدن الفلسطينية وجدد السيطرة على الجزء الجنوبى للطريق البحرى[٢٧] وأسس ملكيات إقطاعية على شاطئ فلسطين[٢٨].وتعتبر إصلاحات الملك يوشيا وتوسعات يهوذا فى عصره صورة واحدة للحياة القومية الثقافية فى يهوذا قبل سقوطها.

أما الوضع الدولى أثناء حكم يوشيا على يهوذا ٦٤٠/٦٠٩ ق.م حدثت فيه العديد من الصراعات السياسية فى منطقة الشرق الأدنى القديم. فبدأ الصراع بين مملكة أشور التى بلغت ذروة مجدها وبين بابل تلك القوة الصاعدة من جديد. بدأ الصراع بينهما واستطاع نابوبولصر ٦٢٦/٦٠٦ق.م[٢٩] أن يؤسس الإمبراطورية البابلية الجديدة[٣٠] واستعاد لها استقلالها ٦٢٥ ق.م[٣١]، كما أن ميديا أزالت عنها ظلم أشور أيام ملكها كياكسارس[٣٢]. ومن جانب آخر أرادت مصر أن تستعيد نفوذها فى منطقة آسيا، وذلك فى عهد بسماتيك الأول الذى حكم ٦٣٣/٦١٠ ق.م والذى استعاد لمصر استقلالها، كما أنه احتل أشدود التى كانت بأيد أشور[٣٣] . وكان من نتائج الغزوات من جانب مصر واستقلالها عن أشور، وكذلك استقلال ميديا عنها وصعود بابل إلى مسرح الأحداث من جديد، أن ساعدت تلك الأحداث الملك يوشيا فى توسيع حدود مملكته. بل إن الأيام الأخيرة من حكم يوشيا مفعمة بالحوادث[٣٤] فقطع ملك ميديا عهدا مع نابوبولصر وكان ذلك نهاية آشور، وسقطت أشور عام ٦١٤ ق.م ونينوى عام ٦١٢ ق.م بأيد المديين والبابليين[٣٥].

مع أن البابليين والميديين قد خربوا نينوى عام ٦١٢ ق.م فإن الأمل رواد الأشوريين بقيادة ملكهم آشور أبلط الثانى ٦١٢/٦٠٨ ق.م، الذى تحصن فى حاران ومنطقة الفرات الأوسط وطلب مساعدة نخاو ملك مصر فى حربه ضد بابل

ووصل الصراع إلى ذروتـه أثنـاء ٦١٠/٦٠٩ق.م[٣٦]. غـير أن نخـاو ملـك مصـر خرج لمساعدة أشور لكى يستعيد لمصر سيطرتها علـى المنـاطق الـتى كانـت لهـا فى آسيا إلا أن حاران هى الأخرى سقطت عـام ٦١٠ ق.م[٣٧]. وقـد سـقطت قبـل أن تصل مساعدة نخاو إليها، لأن يوشيا ملك يهوذا أعاق ملـك مصـر بسـبب الحـرب بين نخاو ويوشيا عـام ٦٠٩ق.م[٣٨]، والـتى جـرح فيهـا الملـك يوشـيا ونقـل إلى أورشليم حيث مات فيها[٣٩]، وانتهت هذه الحـرب لصـالح نخـاو وخضـعت يهـوذا لمصر[٤٠]. ويعود سبب إعاقة يوشيا لملك مصـر إلى خـوف الملـك يوشـيا مـن قـوة مصر بأن تبسط سلطانها على سوريا ومساعدة ملك أشور.

بعد موت يوشيا أخذت الجماعة ابنه يهوآحاز ونصـبوه ملكـا علـيهم[٤١]، وكـان اسمه قبل موت يوشيا شالوم[٤٢]، ولم يكن يهوآحاز بكر يوشيا بـل كـان الابـن الثـانى حيث كان ليوشيا ثلاثة أبناء هم: إلياقيم وشالوم ومتنيا[٤٣] . وقـد ملـك يهـو آحـاز (شالوم) على يهوذا لمدة ثلاثة أشهر من تشرى إلى تموز عام ٦٠٩ ق.م[٤٤].

وبعد أن هزم نخاو ملك مصر يوشيا ملك يهـوذا عـام ٦٠٩ق.م لم يفعـل شـيئا ليهوذا آنذاك ، وشق طريقه إلى منطقـة الفـرات وانتـزع مـن أشـور أرض آرام ، وأسس لنفسه عاصمة فى يربلـه[٤٥] ، رغـم أن حملتـه فى البدايـة كانـت موجهـة لمساعدة أشور أبلط الثانى ملك أشور ضد ميديا وبابل، لكـن بسـقوط حـاران عـام ٦١٠ق.م آخر معاقل الأشوريين، رأى نخاو ملـك مصـر أن يكـون لـه نصـيب فى مملكة أشور، فاحتل آرام وبنى له عاصمة فيها، واستقر فيها فترة مـن الـزمن، وأثنـاء عودته إلى مصر سبى نخاو ملك مصر يهوآحاز وأخذه إلى مصـر حيـا[٤٦]. ولم يكتـف نخاو فرعون مصر بسبى الملك يهوآحاز، بل إنه عين مكانه أخـاه اليـاقيم وغـير اسمـه إلى يهوياقيم[٤٧].

ثانيا ــ ملوك يهوذا فى العصر الكلدانى

تعتبر الفترة التاريخية فى نهاية القرن السابع ق.م وأوائل القرن السادس ق.م فترة تاريخية حاسمة فى تاريخ مملكة يهوذا حيث ظهرت قوى سياسية جديدة مثل بابل وميديا، واندثرت قوى سياسية أخرى مثل قوة أشور، كما أن مصر عادت لتلعب دوراً أساسياً فى تاريخ المنطقة السورية ــ الفلسطينية فقلص دورها، كما أن ملوك يهوذا خلال هذه الفترة خضعوا بأسلوب أو آخر لهذه القوى السياسية مما أوقعهم فى دائرة الصراع بينها. ساعدت هذه التغيرات على قرب زوال الوجود السياسى لمملكة يهوذا. ومن ملوك هذه الفترة الملك يهوياقيم بن يوشيا الذى صار ملكا على يهوذا لمدة أحدى عشر سنة ٦٠٨/٥٩٨ق.م(٤٨). وفى بداية حكمه كان نخاو ملك مصر له السيادة على الأعمال فى يهوذا (٤٩). وشهدت أيام الملك يهوياقيم نهاية أشور تماما من مسرح الأحداث فى الشرق الأدنى القديم، فاستولت مصر على آرام وسوريا، وقسم كل من الميديين والبابليين المملكة المنهزمة بينهم، فأخذ الميديون المناطق الشمالية والشرقية، وأخذت بابل آرام النهرين(٥٠). وأثناء حكم يهوياقيم ازداد الصراع بين بابل ومصر، ومن الطبيعى أن تتأثر يهوذا بهذا الصراع لأن يهوياقيم كان خاضعا لملك مصر وحافظ على جباية الضرائب له(٥١)، كما أقام يهوياقيم حلفا مع مصر، دخلت يهوذا بسببه دوامة الصراع بين بابل ومصر(٥٢).لم يدم طويلا سلطان مصر على يهوذا طويلا، فعندما تولى نبوخذنصر حكم بابل ٦٠٥/٥٦٢ق.م، حارب مصر وهزمها فى كركميش عام ٦٠٥ق.م(٥٣). واستولى نبوخذنصر فى نفس العام على سوريا وفلسطين ووصل جيش بابل إلى حدود يهوذا(٥٤)، وتحولت يهوذا من ذلك الوقت إلى ولاية تابعة لبابل.

هكذا يبدو واضحا أن يهوياقيم ليس مثل يوشيا الذى حاول أن يتصدى

للمصريين، فيهوياقيم لم يخضع لمصر فى بداية حكمه فحسب بل قدس وعبد الهة المصريين إيزيس ملكة السماء[٥٥]، كما أنه كان يحب حياة الترف واللهو فبنى قصرا سخر فيه بنى يهوذا[٥٦]. بعد انتصار بابل على مصر صار يهوياقيم تابعا لبابل واستمر يدفع لها الجزيه لمدة ثلاث سنوات[٥٧]، وذلك بعد انتصار نبوخذ نصر على مصر فى كركميش عام ٦٠٥ ق.م إلى أن قام يهوياقيم بثورته ضد بابل عام ٦٠٢ق.م[٥٨] ، وكانت هذه أول ثورة ليهوذا ضد بابل. اعتمد يهوياقيم فى ثورته على مساعدة الفلسطينيين سكان كنعان الأصليين الذين لم يستطع ملوك اسرائيل القضاء عليهم. أراد يهوياقيم من هذه الثورة التخلص من نير البابليين، وعندما علم نبوخذ نصر بذلك جهز جيشا كبيرا لقمع الثورة عام ٥٩٨ق.م[٥٩] فزحف بجيوشه إلى فلسطين واستولى على أورشليم[٦٠]، ومات يهوياقيم قبل أن يحل به عقاب نبوخذ نصر ملك بابل أى قبل وصول نبوخذنصر إلى أورشليم.

عندما مات يهوياقيم تولى عرش المملكة يهوياكين ابنه وحكم يهوذا لمدة ثلاثة أشهر فقط، وفتح أبواب أورشليم أمام نبوخذنصر الذى أخذه إلى السبى إلى بابل ٥٩٧ق.م[٦١] وسبى معه عشرة ألاف[٦٢]. كان النبى حزقيال[٦٣] من بين المسبيين مع الملك يهوياكين ويرى "بن ساسون" أن خضوع يهوياكين لملك بابل فى ذلك الوقت أنقذ أورشليم من الخراب آنذاك[٦٤].

وبعد انتصار نخاو فرعون مصر على يوشيا فى مجدو عام ٦٠٩ق.م وحتى خراب أورشليم ٥٨٦ق.م تقريبا تم انتهاء الوجود السياسى النهائى ليهوذا عام٥٨٢ ق.م تقريبا ، خلال هذه الفترة بدأت فترة عدم استقرار فى يهوذا التى أقحمت فى دوامة الصراع بين بابل ومصر، اتصفت هذه الفترة بالفوضى العامة فى مملكة يهوذا.

وعندما سبى نبوخذنصر يهوياكين بن يهوياقيم إلى بابل، عين مكانه صدقيا

الذى حكم يهوذا فى الفترة ٥٩٧/ ٥٨٦ ق.م[٦٥]، وغير اسمه الأصلى متانيا إلى صدقياهو[٦٦]، ومن الطبيعى أن يكون صدقيا حاكما مواليا وخاضعا للملك الذى عينه، غير أنه وقع حلفا مع وفود ملوك مؤاب وعمون وصور وصيدا لمقاتلة قوات بابل[٦٧] وذلك عام ٥٩٤ ق.م[٦٨] وحذر النبى إرميا من هذا الحلف (ارميا ٢٧ : ١-٣) . كما أن صدقيا أقام أيضا حلفا مع ملك مصر ضد بابل[٦٩]، ونددد النبى إرميا بهذا الحلف، بل إن ارميا رأى أن الطريق الوحيد لإنقاذ يهوذا هو الخضوع التام لبابل[٧٠]، غير أن الملك صدقيا عارض سياسة النبى إرميا وتوقف عن إرسال الجزية إلى نبوخذنصر[٧١]، وقام بثورة ضد بابل عام ٥٩١ق.م[٧٢].

علم نبوخذنصر بثورة صدقيا فجهز جيشا وصعد إلى أورشليم وحاصر يهوذا وبدأ الحصار فى اليوم العاشر من الشهر العاشر من عام ٥٨٨ ق.م واستمر حتى الشهر السابع من عام ٥٨٦ق.م[٧٣] . أثناء فترة الحصار هذه قام الملك صدقيا بإطلاق سراح العبيد بهدف تطبيق ما جاء فى قوانين التوراة من تحرير العبد العبرى بعد ست سنوات، وهدف من ذلك تحفيز هؤلاء العبيد الانضمام إليه فى محاربة البابليين أى أن الهدف هدف سياسى عسكرى وليس هدفا دينيا اجتماعيا.علم نبوخذنصر أثناء حصار أورشليم بمحاولة غزو من جانب المصريين فتخلى عن حصار أورشليم مؤقتا وذهب لمواجهة المصريين – وهزم نيوخذنصر جيش مصر ثم عاد مرة ثانية لمحاصرة أورشليم من جديد[٧٤]. عندما عاد نبوخذ نصر لمحاصرة أورشليم من جديد كان قد هرب عدد كبير من اليهوذيين إلى مصر[٧٥]. وفى اليوم التاسع من شهر تموز عام ٥٨٦ ق.م هدم البابليون سور أورشليم[٧٦]. وعندما سقطت أورشليم هرب الملك صدقيا وأفراد عشيرته إلى أريحا لكن قوات بابل لحقت به وقتلت جميع أبنائه أمام عينيه وسملت عيناه ونقل إلى بابل[٧٧]، وهذا هو السبى الثانى الذى سباه البابليون من يهوذا، حيث كان السبى الأول من يهوذا عام ٥٩٧ ق.م عندما سبى نبوخذ نصر الملك يهوياكين.

خلال هذه الفترة التاريخية برز عدد من الأنبياء الذين لعبوا دورا سياسيا هاما سواء فى أحداث ما قبل الغزو البابلي أو أثناء الغزو البابلى ليهوذا. أشهر هؤلاء الأنبياء إرميا وحزقيال. فالنبى إرميا عارض سياسة الاعتماد على مصر فى شق عصا الطاعة على بابل وطالب بالخضوع للبابليين، بل إنه تنبأ بسقوط وخراب أورشليم. ويؤكد النبى حزقيال الذى سبى مع يهوياكين ذلك حيث يرى أن بقية يهوذا سوف يلحقون بهم إلى بابل(٧٨).

ثالثا ـ نهاية الوجود السياسى ليهوذا

بعد أن اخترقت جيوش نبوخذنصر مدينة أورشليم، ثم سبى أعدادا كبيرة من خيرة القوم من الصناع والحرفيين، بقى فى يهوذا الطبقة الفقيرة من اليهود، وعين نبوخذنصر على السكان الذين بقوا فى يهوذا جداليا بن أحيقام(٧٩) واختار جداليا بن أحيقام مكانا له فى الشمال من أورشليم وهو المصفاه فى أرض بنيامين(٨٠). وكانت المصفاه هى المكان الذى ركز فيه النبى صموئيل عبادة يهوه بعد خراب شيلوه، وهى المكان الذى شهد تمليك أول ملك على بنى إسرائيل. وربما يكون ذلك هو الذى دفع جداليا لاختيار مكانه فى المصفاه لكى يقاوم الانهيار الذى أصاب الجماعة بعد تدمير أورشليم، كما أنه رغب من ذلك أيضا تذكير الجماعة بعودة المملكة من جديد. طلب جداليا بتحصين المصفاه لتكون مركزاً دينيا وسياسيا لبقية القوم(٨١). ويمثل ذلك بداية صحوة بعد حدوث السبى البابلى.

إن أهم ما يميز فترة حكم جداليا بن أحيقام عودة الفارين أثناء الحصار إلى عمون ومؤاب وبلاد أخرى(٨٢) إلى يهوذا. وعد هؤلاء الفارين عند عودتهم إلى يهوذا الملك بأن يكونوا مواطنى سلام. كان إسماعيل بن نتانيا من النسل الملكى بين الذين عادوا إلى يهوذا (٨٣)، وكان قد هرب أثناء الحصار إلى عمون عند الملك بعليس. ولم يكن حسنا عند إسماعيل بن نتانيا أن يتولى الحكم ملكا ليس من النسل

الملكى لهذا ثار إسماعيل بن نتانيا ضد جداليا بن أحيقام وقتله بعد سبعة أشهر من تولية الحكم[٨٤]، وقد شجع بعليس ملك عمون إسماعيل بن نتانيا على هذا العمل[٨٥]، كما قتل إسماعيل بن نتانيا جميع الموجودين مع جداليا من اليهود والكلدانيين الذين كانوا فى المصفاه[٨٦]. هدف إسماعيل بن نتانيا من هذا العمل إثارة التمرد ضد بابل من جديد[٨٧]، غير أن إسماعيل بن نتانيا لقى مقاومة ضده من جانب يوحنان بن قاريح، وطارد يوحنان بن قاريح، إسماعيل بن نتانيا وأعاد الذين أخذهم إسماعيل بن نتانيا[٨٨].

عندما علم نبوخذنصر بهذه الأحداث أرسل قائد جيشه نبوزادى إلى أورشليم عام ٥٨٢ق.م[٨٩].وصعد نبوزادن إلى أورشليم وسبى منها هذه المرة سبعمائة وخمسة وأربعين رجلا[٩٠] وأرسلهم إلى بابل، وهذا هو السبى الثالث الذى سباه البابليون من يهوذا[٩١] وقبل أن يصعد نبوزادان إلى أورشليم عام ٥٨٢ق.م، هرب يوحنان بن قاريح وأعوانه إلى مصر ورغبوا من ذلك العيش فى أرض غربة بدلا من أن يكونوا عبيدا فى وطنهم[٩٢]،ولحق بهم إرميا وتلميذه باروخ[٩٣].

حدث السبى البابلى ليهوذا إذا ثلاث مرات مرة فى عهد يهوياكين عام ٥٩٧ ق.م ومرة ثانية فى عهد صدقيا عام ٥٨٦ ق.م ثم السبى الثالث الذى سباه نبوزادن قائد جيش نبوخذنصر عام ٥٨٢ ق.م.ويعتقد الباحثون طبقا لرواية العهد القديم أن نبوخذنصر سبى إلى بابل خيرة الجماعة حيث اختلفت سياسته تجاه المسبيين عن سياسة الملوك السابقين، فكان يجمع أفضل العناصر الأجنبية والعمال المهرة ليستفيد منهم فى بناء الأماكن المقفرة لإقامة مملكة عظيمة[٩٤]،وتمتع المسبيون بقسط موفور من الحرية فى حياقم[٩٥] ولم يعاملوا معاملة العبيد[٩٦]، بل إن العديد منهم اشتغل بالزراعة[٩٧]، كما أنهم انتظموا بمرور الزمن فى جماعات رأسها شيوخ الشعب[٩٨] وحافظوا على انتسابهم لبيوت آبائهم[٩٩]، وتؤكد قوائم النسب فى عزرا ونحميا وأخبار الأيام الأول ١٠-٩ ذلك.

الفصل السادس

أوضاع اليهود السياسية والدينية
فى عصر السبى البابلى والعصر الفارسى

أولا ــ أوضاع اليهود السياسية والدينية فى عصر السبى البابلى

يرفض كثير من الباحثين روايات العهد القديم فيما يتعلق بالمبالغات فى وصف تدمير يهوذا ونقل خيرة الجماعة إلى بابل، ومن هؤلاء الباحثين لودز أدولف وفايفر. ويمكن قبول هذا الرأى وتدعيمه لسببين:

الأول ــ أن رواية سفر الملوك الثانى تشير إلى تناقض فى عدد المسبيين فمرة نجد أن عدد المسبيين ثمانية آلاف شخص، ومرة نجد أن عدد المسبيين عشرة آلاف شخص، كما أن الباحثين الذين يؤيدون حادثة السبى يختلفون فيما بينهم حول عدد المسبيين ومن هؤلاء الباحثين بيجرش وكيتل وسميث.

والثانى ــ إن البابليين ليسوا فى حاجة إلى عمال وصناع مهرة، فأحداث التاريخ تؤكد أن إسرائيل ويهوذا لم تسهما بأى نصيب فى حضارة الشرق الأدنى القديم ــ باستثناء فكرة التوحيد ــ، وأنهم تأثروا بحضارات الشرق الأدنى القديم دينيا وسياسيا واجتماعيا سواء زمن وجودهم السياسى المتواضع أو بعد حدوث السبى.

وبصورة عامة نظر اليهود إلى حادثة السبى على أنها تمثل أمرا خطيرا بالنسبة لهم، لأنها تعنى بالنسبة لهم نهاية الاستقلال السياسى. والحقيقة أن حادثة السبى لا

تمثل أى قيمة فى التاريخ العالمى ولا حتى التاريخ القومى لليهود؛ فنبوخذنصر لم يعطها أى أهمية ولم يذكرها فى نقوشه، كما أن الواقع السياسى يشير إلى تدهور الوضع السياسى ليهوذا منذ حدوث السبى الأشورى لمملكة الشمال، وكانت مملكة الجنوب بصورة أو أخرى غير مستقلة استقلالا سياسيا تاما بل كانت خاضعة بصورة أو أخرى لقوة أشور أو مصر أو بابل باعتراف أنبياء بنى إسرائيل أنفسهم، الذين لعبوا أحيانا دور المفسر لأحداث التاريخ أو لعبوا دور المؤرخ الذى يؤرخ لأحداث عصره، إلى جانب الوظيفة الدينية والاجتماعية. ورغم وجود ملوك يهوذيين كانوا يحكمون فى يهوذا وكان تراودهم فكرة الاستقلال السياسى التام لكن ما حدث كان دمار سياسى ودينى، وهذا الذى جعل اليهود يعطون هذه الحادثة قيمة وأهمية على المستويين السياسى والدينى.

١ ــ أوضاع يهود السبى السياسية

بحدوث السبى الأشورى ومن بعده السبى البابلى بدأ شتات اليهود فى العالم القديم فصار لدينا جماعات يهودية متعددة، ومن هنا فصاعدا يجب الحديث عن تاريخ جماعات يهودية يختلف مصير كل جماعة عن الأخرى باختلاف الظروف التاريخية والسياسية والاقتصادية بل والحضارية التى تحيط بكل تجمع من تجمعات اليهود.

تصور لنا أسفار إرميا وحزقيال وإشعيا الثانى أوضاع اليهود زمن السبى البابلى الذى استمر من ٥٨٦ ــ ٥٣٩ قبل الميلاد، كما توجد بعض المعلومات القليلة التى وصلت لنا من خلال النقوش التى عثر عليها فى مدينة نيبور. أما اليهود الذين استمروا فى فلسطين بعد السبى لم تصل إلينا معلومات تاريخية مؤكدة باستثناء ما ورد فى إرميا ٣٢ وما بعده، والملوك الثانى ٢٤ -٢٥. تشير هذه المواضع إلى أن مساكين الشعب هم الذين بقوا فى يهوذا بعد السبى: " وترك رئيس الشرط من

مساكين الأرض كرامين وفلاحين "، وأن البعض قد هرب إلى السامرة وأدوم وعبر الأردن ومصر. ويبدو من الحفريات فى العصر الحديث أن المدن التى تقع شمال أورشليم مثل بيت إيل والمصفاة وجبعون لم تدمر، ويعتقد أنها استسلمت لبابل فى بداية الحرب، وأنها كانت من أنصار حلف إرميا الذى دعا إلى الاستسلام السلمى لبابل فأدى ذلك إلى إنقاذها من الدمار الذى أصاب بقية مدن يهوذا. وبسبب استسلامها السلمى لبابل تم اختيارها لتكون مقرا لجدلياهو بن أحيقام الذى عينه ملك بابل حاكما على من بقى من اليهود فى فلسطين، ورغم ذلك وجد حلف لا يزال معارضا للبابليين، وتزعم هذا الحلف إسماعيل بن نتانيا بن إليشاع من النسل الداودى، واستطاع بمعاونة مجموعة من أنصاره ودعم من بعليس ملك عمون من قتل جدليا بن أحيقام، ولخوفهم الشديد من انتقام الملك البابلى فروا هاربين إلى مصر.

بعد الدمار الذى أصاب يهوذا وتهجير عدد كبير من سكانها إما قصرا إلى بابل أو فرارا إلى المناطق المجاورة هربا من السيادة البابلية، استغل سكان فلسطين الأصليين ــ العمونيون والأدوميون والفلسطينيون ــ هذا الوضع المتدهور وبسطوا سيطرتهم على أجزاء منها، أما من بقى من اليهود ولم يهاجر فقد وضعوا أيديهم على أملاك المسبيين واستولوا عليها، ولم تصبح يهوذا ولاية مستقلة حتى بعد مقتل جداليا وانحصرت حدودها فى أملاك قبيلة يهوذا القديمة. وليس لدينا معلومات عن تنظيمهم أو أحداثهم أثناء السبى البابلى، لكن تتجدد الأخبار عن اليهود فى فلسطين مع العودة إلى صهيون، أى مع بداية العصر الفارسى وعلى العكس من ذلك نجد معلومات كثيرة ومتوافرة عن يهود بابل زمن نبوخذنصر.

ففيما يتعلق بوضع يهود بابل يلاحظ أن الذين سبوا مع يهوياكين (٥٩٧ ق.م) كانوا يعتقدون أن السبى رؤية وقتية وأنهم سينالون الحرية لذلك لم يخطر بالهم الاندماج مع البابليين، وفى ضوء هذا الاعتقاد لم يأملوا فقط فى العودة سريعا

إلى فلسطين لكنهم أجروا مباحثات بطريقة ما مع يهود فلسطين ، وكان الهدف من هذه المباحثات إثارة تمرد عام ضد نبوخذنصر، رغم وجود فريق من يهود فلسطين كان يرفض هذا التمرد، وكان النبى إرميا على رأس هذا الفريق. فالنبى إرميا كان يدعو إلى الخضوع السلمى لبابل، وعدم الوقوف أمام قوتها، ويظهر من أقواله أنه كان مواليا لبابل ومدافعا عنها: " إنى أنا صنعت الأرض والإنسان والحيوان الذى على وجه الأرض... وقعت كل هذه الأراضى ليد نبوخذنصر ملك بابل عبدى... فتخدمه كل الشعوب... ويكون أن الأمة أو المملكة التى لا تخدم نبوخذنصر ملك بابل، والتى لا تجعل عنقها تحت نير ملك بابل إنى أعاقب تلك الأمة بالسيف والجوع والوباء يقول الرب حتى أفنيها بيده ". فهذه النبوءة تشير إشارة واضحة إلى أن النبى إرميا كان من دعاة الاستسلام لبابل لإنقاذ يهوذا من الدمار.

ورغم نبوءة إرميا هذه فإن صدقيا الذى ظل فترة متظاهرا بالولاء لبابل خضع لميوله الشخصية واستجاب لرغبة الزعماء الوطنيين فى فلسطين واعتمد على مساعدة مصر رغم تحذير النبى إرميا من ذلك . وعندما بدأ التمرد ضد سلطان بابل زمن الملك صدقياهو لم يستمر طويلا بل انتهى بالدمار الشامل لأورشليم، وبدلا من الأمل الذى كان يراود أصحاب السبى الأول انضم إليهم قادمون جدد.

فى ضوء هذه الأحداث فقد يهود بابل الأمل خاصة أن المسبيين الجدد قد أتوا إلى بابل ومعهم أخبار سيئة عن الدمار الكبير الذى أصاب أورشليم وتضاءل الأمل فى إحياء سياسى قريب بين يهود السبى، وصار من الضرورى التكيف فى البيئة الجديدة. بدأ هذا التكيف بإثارة الإحساس القومى فالدمار الشامل حث أبناء الأسرة القومية الذى تيتم، وتقوت فيهم العلاقة الروحانية، فقد انتشرت المستوطنات اليهودية فى بابل، وفضل المسبيون الأوائل الذين سبوا مع الملك

يهوياكين وحزقيال الاستقرار فى نيبور المدينة القديمة. ولم يكن الاستقرار فى نيبور مجرد صدفة، لأن نيبور استخدمت كحصن للأشوريين فى بابل زمن أشور بانيبال وخاصة زمن الحروب بين ورثته وبين نابوفلاسر، وقد أصيبت بضرر كبير آنذاك ومما لا شك فيه أن سكانها الموالين لأشور تمت معاقبتهم أو نفيهم من المنطقة وقد تزايد استيطان اليهود فى المناطق التى دمرت أثناء الحرب مع الأشوريين ويدل على ذلك أسماء تلك الأماكن مثل: تل أبيب وتل الطين.

تزايد الاستيطان اليهودى فى بابل بمرور الأيام وجاء الكثير منهم للسكن فى العاصمة بابل وفى أماكن أخرى مختلفة، وقد عمل هؤلاء الذين استقروا فى بابل فى أعمال التشييد فى قصور الملك. وبعد أن سلم المسبيون بمصيرهم بدأوا يسلكون فى الطريق الذى رسمه لهم النبى إرميا؛ فبنوا لأنفسهم بيوتا وغرسوا حدائق وزرعوا حقولا: " ابنوا بيوتا واسكنوا واغرسوا جنات وكلوا من ثمرها. اتخذوا نساء ولدوا بنين وبنات واتخذوا لبنيكم نساء واجعلوا بناتكم لرجال وليلدن بنين وبنات واكثروا هناك ولا تقلوا ... ". وفى فترة متأخرة من السبى أى بعد سقوط بابل عمل كثير منهم بالتجارة، وقد أخذ اليهود هذه الحرفة عن البابليين.

يفهم من خطاب إرميا إلى المسبيين حثهم على الاستقرار والعيش كمواطنين عاديين، ويؤكد ذلك تعدد الأماكن التى استقر فيها اليهود، وكذلك تعدد الحرف التى عملوا بها، وقد ساعد على ذلك كله المعاملة الحسنة التى عامل بها البابليون المسبيين من اليهود حيث لم يعاملوهم معاملة العبيد بل منحوهم قسطا من الحرية فسمح لهم بحرية اختيار الأماكن التى يستقرون فيها والحرف التى يعملون بها، وكذلك التنظيم السياسى المستقل. استقر اليهود المسبيين فى أماكن متقاربة وانضموا فى جماعات. وقد انتهج المسبيون الجدد الأسلوب ذاته الذى سلكه المسبيون الذى جاءوا زمن يهوياكين وذلك بعزلتهم عن سكان البلد الأصليين . وبدلا من السلطة السياسية التى انتهت مع حدوث السبى حل محلها سلطة رؤساء

الآباء. ونظموا أنفسهم فى بابل على نمط تنظيمهم فى فلسطين قبل حدوث السبى فهناك بيت لحم، ورجال أريحا والرامة وعناثوث ومدن أخرى فى يهوذا. أما الذين سبوا من أورشليم فقد انقسموا لمجموعات من العشائر وكل جماعة انتسبت لبيت أب قديم قبل السبى وسجلت قوائم النسب (مثل قوائم النسب فى عزرا ٢ ونحميا ٧). حفظت قوائم النسب هذه عند شيوخ كل عشيرة الذين اهتموا بشئون العامة فى حدود السلطة الذاتية التى منحت لهم.

يجب الإشارة أيضا إلى أنه انضم إلى الطوائف اليهودية فى بابل بعض من بقايا إسرائيل الذين سبوا زمن السبى الأشورى خاصة أولئك الذين حافظوا على قوميتهم ولم يندمجوا فى البلاد التى سبوا إليها. وهذا التقارب والتماذج بين إسرائيل ويهوذا فى السبى فهمه أنبياء ذلك الجيل على أنه بداية للخلاص، وتنبأ النبى حزقيال بالوحدة السياسية لإسرائيل ويهوذا (١٦: ٥٣، ٣٧: ١٦) " وأنى سأعيد سبيهن سبى سدوم وتوابعها وسبى السامرة وتوابعها وسبى مسبيك فى وسطهن " ، "وأنت يا ابن البشر فخذ لك عودا واحدا واكتب عليه ليهوذا وبنى إسرائيل أصحابه. وخذ عودا آخر واكتب عليه ليوسف عود أفرايم ولكل آل إسرائيل أصحابه واقرنهما الواحد بالآخر حتى يصيرا لك عودا واحدا فيصيران واحدا فى يدك ".

وإذا كانت توجد روايات فى العهد القديم تشير إلى أن المسبيين قد عانوا بعضا من العذاب فى بابل، فإن عدم تذمر يهود السبى أنفسهم وتعدد أماكن استقرارهم وتنوع الحرف التى عملوا فيها يدل على أن اليهود كانوا يمارسون حياتهم بصورة طبيعية جدا فى بابل كما كانوا يمارسونها فى فلسطين قبل حدوث السبى. وأنهم مثلوا طائفة مستقلة فى كل شئ بل إن حصولهم على الحكم الذاتى بدلا من السلطة السياسية لهو خير دليل على ذلك حيث حل شيوخ العشائر محل الوزراء. وليس أدل على ذلك من خطاب النبى إرميا ليهود السبى الذى شمل توجيها

اقتصاديا واجتماعيا.

وبفضل أعمال المسبيين الزراعية والاقتصادية التى ما رسوها فى بابل كونوا ثروات ضخمة. ويدل على ثراء يهود السبى مقدار ما ساهموا به فى إعادة بناء الهيكل فى العصر الفارسى، مقابل الفقر الشديد الذى سيطر على يهود فلسطين وعدم مقدرتهم فى المساعدة المالية فى بناء الهيكل. ويلاحظ أيضا أن حياة يهود السبى الاجتماعية فى بابل لا تختلف عن الحياة التى كانوا يعيشونها فى فلسطين قبل السبى، فكانوا يذهبون إلى بيت حزقيال " فى السنة السادسة فى الشهر السادس فى الخامس من الشهر وأنا جالس فى بيتى وشيوخ يهوذا جالسون أمامى وقعت على هناك يد السيد الرب " (٨:١)، " وأتانى رجال من شيوخ إسرائيل وجلسوا أمامى (١٤: ١ ، وأنظر ٢٠ : ١) .

يؤكد استقرار الحياة الاجتماعية ليهود السبى وجود قوائم النسب التى أشر إليها آنفا، وذلك أيضا على عكس يهود فلسطين الذين اختلطوا، بل ربما ذابوا فى سكان فلسطين الأصليين العمونيين والمؤابيين والفلسطينيين فطوبيا العمونى يرتبط بأواصر النسب بكبير الكهنة وله قسمه فى أفنية المعبد، وتزايد الزواج المختلط ونشأت طبقة جديدة تفسر نشأتها مظاهر الانحطاط الدينى. ومما يوضح أن يهود السبى لم يعاملوا معاملة سيئة، أو لم يعاملوا معاملة العبيد هو إطلاق سراح الملك يهوياكين من السجن ومعاملته معاملة حسنة، وربما كما يقال أنه لم يسجن مطلقا بل إنه كان يأكل من طعام الملك.

يتضح من وصف الحياة السياسية والاجتماعية ليهود بابل ، أن طبيعة حياتهم الاجتماعية والسياسية لا تختلف كثيرا عن طبيعة المجتمع العبرى القديم ، حيث حاولوا المحافظة على الطبيعة القومية المغلقة التى تميزت بها الجماعة العبرية القديمة ، وأن عدم مساهمتهم فى الحياة الاجتماعية والسياسية يشبه إلى حد كبير عدم

مساهمة العبريين ، وفيما بعد بنى إسرائيل فى الحياة فى مصر أثناء فترة وجودهم فى مصر، أو يمكن القول أن حياة اليهود أثناء السبى تعد امتداد لحياة بنى إسرائيل فى مصر ، ومقدمة لحياة الحياة فى العصور التالية المختلفة ، أى يغلب عليها طابع الانغلاق وعدم الاندماج فى المجتمعات التى يعيشون فيها ، وذلك على عكس الجماعة اليهودية التى استقرت فى فلسطين ، ولم تنتقل إلى بابل بل آثرت البقاء فى فلسطين ، وهذه الجماعة اندمجت وذابت فى شعوب فلسطين الأصليين. وهذا أشبه بوضع اليهود الذين عاشوا لا حقا فى المجتمعات الإسلامية حيث اندمجوا فى هذه المجتمعات مع حافظهم على تراثهم الدينى. فيمكن القول بأن حياة الجيتو التى عاشها اليهود فى أوربا هى امتداد لحياة اليهود فى بابل، وأن اليهود الذين اندمجوا فى المجتمعات الإسلامية، أو بعض اليهود الذين اندمجوا فى المجتمعات الأوربية تعد استمرارا لحياة يهود فلسطين.

٢ ـ الوضع الدينى لليهود زمن السبى البابلى

كان الوضع الدينى فى يهوذا قبل السبى البابلى متدهورا، ويدل على ذلك تلك التوبيخات التى وبخ بها الأنبياء سكان مملكة يهوذا على الانحراف الدينى والأخلاقى والابتعاد عن الدين الصحيح. وقد كان للسبى البابلى أثره فى تفشى ظاهرة انتشار العبادات الوثنية فى يهوذا، لذلك نجد النبى إرميا يندد بشدة ضد تفشى عبادة عشتار ملكة السماء فيقول: " ولكن منذ أهملنا التقتير لملكة السماء وسكب السكُب لها صرنا محتاجين إلى كل شئ وفنينا بالسيف والجوع ونحن إذ كنا نقتر لملكة السماء ونسكب لها سكبا بدون رجالنا كنا نصنع لها أقراصا لنخدمها ونسكب لها سكبا". ويصور النبى حزقيال الذى سبى مع يهوياكين ٥٩٧ ق.م وضع العبادة فى المعبد من خلال رؤية رآها فى بابل عن تمثال الغيرة ـ ربما كان لعشتار ، وفى موضع آخر من السفر يحدثنا عن بكاء نساء أورشليم عن تموز

وسجود الرجال للشمس، فيقول: " ثم أتى بى إلى مدخل بيت الرب الذى هو جهة الشمال فإذا هناك بنساء جالسات يبكين على تموز ... ثم أتى بى إلى دار بيت الرب الداخلية فإذا عند مدخل هيكل الرب بين الرواق والمذبح نحو خمسة وعشرين رجلا ظهورهم إلى هيكل الرب ووجوههم نحو الشرق وهم يسجدون للشمس نحو الشرق ". وكانت عبادة البعل فى الوقت نفسه منتشرة فى السامرة كما يشير إلى ذلك الإصحاحات الأخيرة من سفر النبى إشعيا .

فى ظل هذه الأوضاع الدينية المتردية والفراغ السياسى التام بحدوث السبى البابلى وجد يهود السبى خاصة أنه لا سبيل لهم للنهوض مرة أخرى إلا من خلال اللجوء إلى الدين وصار الدين عزاء لهم للهروب من الواقع السياسى المرير الذى حدث لهم. فالدمار السياسى ونهاية المملكتين أدى إلى نهضة روحية عميقة بين المسبيين خاصة. وكما يقول موسكاتى "فإن الذى دفع يهود السبى العودة إلى الدين وإلى الله هو زوال الوجود السياسى، وقد دفعهم ذلك إلى أن تتحول هذه الجماعة إلى جماعة دينية تتمحور حياتها حول الدين، فظهرت حركة تجدد روحى بين اليهود هدفها بعث الجماعة من جديد بعد دمار المملكة".

وقد أثر السبى البابلى وانتهاء الوجود السياسى ليهودا تأثيرا كبيرا فى الأوضاع الدينية لدى يهود بابل. وبرز هذا الأثر فى عدة نتائج، أولها : بدأ المسبيون فى دراسة الكتب المقدسة والتفاسير وأخبار ملوك إسرائيل الأوائل وأقوال الأنبياء التى أحضروها معهم هذا بالإضافة إلى التراث الشفوى الذى كان يشمل على مادة تاريخية ودينية لا تزال حاضرة فى ذاكرة الكهنة ورجال الدين. وثانيها: أن وجه رجال الدين جل اهتمامهم إلى دراسة الشريعة دراسة منظمة، كما نشروا الأسفار المقدسة، وحولوها من تراث شفوى إلى تراث مدون، وتم إعادة تنظيم التوراة واستكمالها وجعلها مصدرا أساسيا لتعاليم اليهود. وثالثها: اكتساب السلطات الكهنوتية وضعا جديدا. ورابعها: سيادة مفهوم عالمية الإله

فصار يهوه هو الإله الأوحد للعالم، ووحدته صارت وحدة مطلقة.

وظهر تأثير السبى أيضا فى مجال عبادة يهوه فلم تعد العبادة قاصرة على مكان واحد، فالهيكل قد دمر واليهود فى بلد بعيد لذلك كان اليهود أثناء الصلاة التوجه صوب الغرب أى إلى أورشليم، وبدأو أيضا قراءة التوراة فى الصلاة خاصة أيام السبت، وصاموا أربعة أيام هى أيام الحداد لارتباط هذه الأيام بذكريات مؤلمة، وهذه الذكريات هى فقد الوطن بعد الحصار، ثم الدمار؛ فحرق الهيكل وأخيرا قتل جداليا بن أحيقام.

أما فيما يتعلق بالأعياد اليهودية فكانت جميعها أعياد ترتبط بمواسم الزراعة زرعا أو حصدا، أما فى بابل فتحولت إلى أيام ذكرى للماضى مثل حادثة الخروج والتجوال فى الصحراء، كما زادت قيمة يوم السبت، وأصبح يوما للعبادة وصار عيدا قوميا أساسيا.

ثانيا ـــ نهاية بابل وصعود فارس

استمر نبوخذنصر حاكما على بابل أكثر من أربعين عاما، وصلت فيها الإمبراطورية الكلدانية إلى قمة مجدها كما تقوى سلطانها فى آسيا، وإذا كان نبوخذنصر قد قام بسبى كثير من يهود فلسطين إلى بابل، فإنه حصل على أفضل أنواع خشب لبنان لأجل بناء قصوره. ومن كتابات نبوخذنصر التى حفظت شاهدة على أعماله التشييدية الباهرة فى بابل تشييده قصورا فخمة واحدا منها كان يشمل حدائق معلقة فى الهواء، كما أقام حول بابل أسوارا محصنة لكن كل ذلك تحطم خلال سنوات قليلة. فالبيت الملكى بدأ فى التدهور سريعا بعد موت نبوخذنصر فبعده تولى ابنه أويل مردوخ لمدة عامين (٥٦٢ــــ٥٦٠ق.م) الذى فى عصره تم تحرير يهوياكين الذى ظل مأسورا لمدة خمسة وثلاثين عاما ، وبعدها قربه أويل مردوخ منه وجعل له صورة محترمة فى القصر الملكى . غير أن هذا الأمر

مدهش حيث إنه طبقا للوثائق الاقتصادية من بابل فإن يهوياكين لم يكن مسجونا فى بداية حدوث السبى حيث أكل من خبز الملك، قضية وضع يهوياكين فى الأسر لم نجدها مصدر سوى فى المصادر اليهودية وخاصة العهد القديم، وقد يكون لهذه القصة هدف وهو أن تحرير يهوياكين من السجن فى عصر أويل مردوخ قد استخدم كعلامة أولى للتبشير بالخلاص، أى سقوط بابل وعودة صهيون.

لم يستمر أويل مردوخ فى الحكم كثيرا فيعتقد بأنه قد قتل أثناء انقلاب داخلى دبره كهنة بابل، وتولى بعده نرجل شراصر (نرجلسار فى سفر إرميا) قائد الجيش.استمر أويل مردوخ فى الحكم قرابة أربع سنوات خلفه بعدها على كرسى العرش ابنه لباشي مردوخ، ولم يمر وقت طويل حتى قتل على يد زعماء بابل الذين ملكوا أحدهم هو نبونايد عام (٥٥٥ ق.م) . وينتمى نبونايد إلى مدينة حاران وربما يعود أصله إلى أسرة آرامية، وقد قام بعمل إصلاحات دينية فى المدن البابلية الرئيسية؛ فأعطى أهمية كبيرة لإله القمر أكثر عن بقية الآلهة، وأثار بذلك سخط الكهنة وخاصة كهنة العاصمة بابل. كان الملك الجديد ضعيفا، ولم يكن يملك القدرة للسيطرة على مملكة قوية مثل مملكة بابل، فقد ركز اهتمامه فى زيادة عدد المبانى الفاخرة، وترك ملكه وغادر العاصمة لمدة عشر سنوات استقر خلالها فى تيماء فى الجزيرة العربية، وملك بدلا منه ابنه بل سر آصر آخر ملوك بابل.

فى مقابل هذا التدهور الذى حدث للإمبراطورية الكلدانية، نلاحظ أن الميديين الذين ورثوا بعض الأجزاء من أملاك الإمبراطورية الأشورية قد بسطوا نفوذهم على أرمينيا وجزء من آسيا الصغرى، وحالوا أن يجدوا لهم طريقا على بحر إيجه لكن أعاقها عن ذلك أرض لود اليونانية، ولم يستطع كياخسر ملك الميديين أن يشق طريقه إليها.

خلال هذه الفترة الزمنية الأحداث الدولية تطورا جديدا، فظهرت قوة جديدة

هى قوة الفرس بقيادة قورش الذى استطاع القضاء على قــوة الميــديين وذلــك عــام ٥٤٧ ق.م ، وأعلن نفسه ملكا على فارس وميديا.

وفيما يتعلق بعلاقة بابل بالقوة الجديدة فقد عقد كورش اتفاقا بينــه وبــين نبونايــد استطاع بموجبه نبونايد الحصول على حران، غــير أن هــذا الاتفــاق لم يــدم طــويلا حيث استطاع كورش خلال عشر ســنوات أن يوســع حــدود مملكتــه، ومــن بــين الأقاليم التى أدخلها أقليم كيليكية الذى كان تابعــا لبابــل، فــأدى ذلــك إلى انهــاء الحلف بينهما؛ فبعد أن قضى كورش على الميديين بدأ فى ضــم الأقــاليم التابعــة لبابــل ومنها بلاد أشور التى استولى عليها عــام ٥٤٧ ق.م ، ثم بابــل الــتى اســتولى عليهــا عام ٥٣٩ ق.م. يرجع كــثير مــن البــاحثين ســهولة ســقوط بابــل إلى الأوضــاع الاقتصادية والمعيشية المتردية حيث رافق ذلــك انتشــار القحــط وارتفــاع الأســعار، وبالإضافة إلى غياب الملك عن المملكة لمدة عشر ســنوات ممــا أدى إلى تــذمر وتمــرد عام فى المملكة. وهناك سبب جوهرى ورئيسى لا يمكن إهمالــه نقصــد بــذلك دعــم يهود بابل للفاتح الجديد حيث اعتبروه مخلصا لهم مــن الســبى. وبــدخول كــورش إلى مدينة بابل يبدأ التاريخ الرسمى للإمبراطورية الجديدة. ولم يكــن ســقوط بابــل مجــرد سقوط امبراطورية، بل إنه يعنى انتهاء السيادة العربية لتحــل محلــها الســيادة الهنديــة ـــ الأوربية التى استمرت ما يقرب من ألف عام حيث عــادت الســيادة العربيــة مــرة أخرى لكن مع ممثلين جدد هم عرب الجزيرة العربية، ومع ظهــور ديــن جديــد هــو الدين الإسلامى.

ثالثا ـــ الوضع السياسى والدينى ليهود بابــل وفلســطين فى العصــر الفارسى

يبدأ العصر الفارسى الأخمينى فى بلاد الشرق القديم باســتيلاء كــورش علــى بابــل عام ٥٣٩ ق.م ، وينتهى بغزو الإسكندر الأكــبر لــبلاد الشــرق عــام٣٣٣/ ٣٣١

ق.م ، أى أن العصر الفارسى استمر زهاء قرنين من الزمان .

بتأسيس الإمبراطورية الفارسية على أيد كورش الفارسى تبدأ مرحلة جديدة من مراحل التاريخ اليهودى القديم، فعندما دخل قورش إلى بابل وجد طائفة يهودية يعود أصلها إلى السبى الأشورى والسبى البابلى، ويعتقد أن هذه الطائفة قد ساعدت كورش على احتلال المدينة. ويمكننا قبول هذا الرأى إذا ربطنا بين ذلك وبين نبوءة النبى إشعيا الذى اعتبر بلاد الفرس إداة لتحرير اليهود، وأن كورش رجل لا يقهر وأنه سيفتح بابل وينقذ اليهود من السبى ويعودوا إلى أورشليم ويشيدون هيكلا جديدا ومدينة جديدة تكون جنة بحق، فيقول إشعيا: " الذئب والحمل يرعيان معا والأسد يأكل التين كالبقر، أما الحية فالتراب طعامها لا يؤذون ولا يهلكون، فى كل جبل قدسى يقول الرب ". ولهذا السبب ربما كان النبى إشعيا من أشد المعارضين لاندماج يهود السبى خاصة أن طائفة منهم بدأت تعبد الآلهة البابلية، وتألف الأساليب الشهوانية الشائعة فى بابل حتى أن الجيل الثانى من المسبيين كانت ذكرى أورشليم قد محيت أو كادت تمحى، لذلك هدف هذا النبى أن يعيد هؤلاء المسبيين إلى دين يهوه، وأن يرتقى به إلى مستوى رفيع. وهدف إشعيا من ذلك أن الاندماج سيقضى على وحدة اليهود وعلى كيانهم.

وعندما دخل كورش إلى بابل وضع حدا للسبى البابلى وإذن للمسبيين من اليهود وغيرهم بالعودة إلى أوطانهم الأصلية، كما سمح بإعادة بناء أورشليم. ونجد صدى لذلك فى رواية العهد القديم: " وفى السنة الأولى لقورش ملك فارس لأجل تكميل كلام الرب بفم إرميا نبه الرب روح قورش ملك فارس فأطلق نداء فى كل مملكته وكذا بالكتابة قائلا هكذا قال قورش ملك فارس إن الرب إله السماء قد أعطانى جميع ممالك الأرض وهو أوصانى أن ابنى له بيتا فى أورشليم التى فى يهوذا"، وفى موضع آخر: "القائل عن قورش راعى فكل مسرتى يتمم ويقول عن أورشليم ستبنى وللهيكل ستؤسس". ولكن لم يكن هناك أى عضو من الأسرة الملكية القديمة

ليتولى زمام المبادرة بإعادة النظام السياسى كما أن النظام الفارسى ومن بعده النظام المقدونى لم ولن يقبلوا قيام نظام ملكى قومى جديد، لذلك لم تعرف فلسطين بإشراف المرازبة سلطة غير سلطة الطبقة الكهنوتية، وكان على رأس هذه الطبقة رئيس كهنة يدير شئون البلاد يعاونه مجلس أعيان من المدنيين والكهنة أطلق عليه اسم سنهدرين من الكلمة اليونانية سندريون، والسنهدرين بمعنى المجلس الأعلى ودام هذا النظام الثيوقراطى الذى جعل من الدولة القديمة كنيسة والذى تعود بدايته إلى يهود السبى البابلى حيث اكتسبت السلطة الكهنوتية والمنظمات الكهنوتية وضعا جديدا فى عصر السبى البابلى وما بعده.

وبطبيعة الحال لم يقتصر مرسوم كورش السماح لليهود بالعودة إلى فلسطين بل أعاد إليهم حسب رواية العهد القديم كنوز الهيكل التى كان قد سلبها نبوخذنصر وأمر بإعادة بناء الهيكل، غير أن الذين عادوا إلى فلسطين كانوا يمثلون عددا قليلا إذا ما قورنت أعداد العائدين بأعداد المسبيين. ويمكن القول بأن الذين عادوا هم أولئك الذين لم يفلحوا فى الاندماج فى البيئة الجديدة ولم يستطيعوا تكوين ثروة وأنهم أولئك المتعصبون للهيكل والذين سمعوا كلام النبى إشعيا الذى حذر من خطر الاندماج. أما أولئك ـــ وهم كثر ـــ الذين تأقلموا فى بابل فترددوا طويلا فى العودة، ولماذا يعودون وقد كونوا ثروات ضخمة وكيف يتركون حقولهم المثمرة وتجارتهم الرابحة ليعودوا إلى الأرض الجدباء المقفرة. ويؤكد هذا المعنى المؤرخ اليهودى الأمريكى "سالو بارون" حيث يرى أن زعماء المنفيين قد أصروا على أن تتلى فى جميع مناطق السبى الصلوات من أجل صحة حكماء بابل قبل أى شئ. ويؤكد أيضا استمرار وجود كثير من اليهود فى بابل وخاصة الأثرياء منهم ورود أسماء عبرانية بصورة متكررة فى الوثائق التجارية التى تعود إلى ذلك العصر، وكانت هذه الأسماء مركبة من أسماء الآلهة البابلية مما يعنى ابتعاد بعضهم عن دين يهوه. وكانت أهم مراكزهم كما ذكرنا سابقا على نهر خابور ، وعرف هؤلاء

الذين بقوا فى بابل وقاوموا خطر الاندماج بالسكان ما عرف باسم الدياسبورا أى اليهود المقيمين خارج فلسطين أو يهود الشتات . وكانت الديانة اليهودية عاملا رئيسا فى تماسك اليهود فى مواطنهم الجديدة .

لم يكن أمر كورش بالسماح لليهود بالعودة إلى أرض فلسطين أمرا مستغربا أو أمرا مستحدثا إذا فهمنا سياسة كورش تجاه الشعوب التى قام بغزوها حيث إن سياسته تختلف اختلافا جوهريا عن سياسات الإمبراطوريات العربية (الشرقية)، حيث كانت سياسة الأشوريين والبابليين توطيد سلطاهم من خلال وضع سكان وطنيين فى الأماكن الخاضعة لهم وترحيل سكان البلاد الأصليين إلى عواصم تلك الإمبراطوريات. أما سياسة الفرس كانت عكس هذه السياسة كلية فلم يقم الفرس بترحيل السكان الأصليين إلى مدنهم الرئيسية بل كانت تبقى السكان على وضعهم . وهذا التسامح من جانب الفرس لم يكن مطلقا بل نلاحظ أن السلطة كانت مركزة فى شخص الملك وكبار موظيفه، كما يمكن أيضا فهم سماح كورش لليهود بالعودة لوجود جالية يهودية فى فلسطين موالية لمصر، وأن هؤلاء العائدون سيمثلون حزبا مواليا له مقابل الحزب الموالى لمصر، وبذلك يضمن توازنا فى ميزان القوى.

ورغم أن كورش قد سمح لليهود بالعودة فإنه خيب رجاء بعض الأنبياء إذ أظهر ما فى طباعه من حضارة أرقى من حضارقم، إذ ترك بابل وشأها ولم يمس أهلها بسوء، وأظهر خضوعه لآلهتها. وهذه تعتبر سمة عامة تميز بها عصر كورش فكانت السياسة العامة التى تقوم عليها دولته حرية العبادة والعقيدة، فلم نقرأ عنه أنه نهب أو سرق أو خرب معابد شعوب مغلوبة، بل نراه يبدى كثيرا من الإكبار والإجلال لآلهة الشعوب المغلوبة، ويسهم من ماله فى المحافظة على أضرحتها وكل هذا لأنه كان على علم بالمبدأ الذى يبنى عليه حكم الشعوب وهو أن الدين أقوى من الدولة.

أما عن وضع اليهود فى فلسطين فكان وضعا صعبا فالأرض كادت تكون خاوية من السكان اليهود خاصة أورشليم ومحيطها وكان وضع الفلاحين سيئا للغاية، ولم تكن لهم السيادة على كثير من الأرض. فى ظل هذا الوضع المتدهور بدأت الشعوب المجاورة ـ سكان فلسطين الأصليين ـ بسط نفوذها، فاستولى الأدوميون على النقب، واستوطن الأشدوديون فى المناطق الغربية، والعمونيون دخلوا جماعات جماعات إلى يهوذا واستولوا عليها. أما فى الشمال فى مناطق مملكة إسرائيل فقد استقر السامريون وهؤلاء خليط من السكان الذين لم يسبوا إلى أشور والجماعات التى وطنها الأشوريون بعد السبى. هذا الوضع للسامريين جعل ديانة السامريين تختلف عن الديانة فى بابل، حيث إن عقيدة السامريين خليط من عبادة يهوه القديمة والعقيدة الشعبية التى كانت سائدة فى مملكة الشمال. وعلى هذا الأساس الدينى والعرقى فإن السامريين ليسوا عبريين خلص أى أنهم أشباه عبريين. وقد حدث تغلغل دينى وعرقى لليهود أنفسهم الذين استمروا فى مناطق المملكة الجنوبية فوجدت كثيرا من النساء الأجنبيات بين العشائر العبرية كما اختفت اللغة العبرية وحلت محلها اللهجات القومية كالأشدودية مثلا.

لذا وجب على العائدين الذين سمح لهم كورش استنفار قوتهم ليقيموا فى فلسطين النظام العام الذى أهمل، واستلزم ذلك أمرين: الأمر الأول ـ يتمثل فى أبعاد أولئك الذين استقروا فى يهوذا من المناطق المجاورة، والأمر الثانى ـ يتضح من العودة وإعادة بناء الخراب الذى حل بأورشليم ومحيطها.

لم يستطع العائدون تحقيق ذلك بسهولة بدون دعم من الحكومة الفارسية التى كانت آنذاك لا تعير أهمية كبيرة لفلسطين حيث كانت الإمبراطورية آنذاك منهمكة فى فتوحاتها، لكن ما وصل إلينا من نصوص العهد القديم يشير إلى أن كورش عين ششبصر زعيما على يهوذا، وفى موضع آخر نجد الاسم زروبابل بن شألتيل من النسل الملكى ويشوع بن صادوق الكاهن.

أما العائدون من بابل فقد استوطنوا فى أورشليم ومحيطها وكان أحد أهم الأمور المقلقة لهم هو تجديد العبادة والقداسة لأورشليم. وتطلب هذا الاحساس الدينى التجديد بكل همة ونشاط، لأن هؤلاء يرون أن خلاص الجماعة مرتبط بعودها لمدينتها المقدسة. وبدأ العمل بإعادة بناء المذبح الذى هدم ، وتجدد تقديم القرابين مرة أخرى الذى كان قد توقف منذ تدمير الهيكل .

بدأ بعد ذلك الاعداد لإعادة بناء الهيكل وعقدت اتفاقية مع الصيدونيين والصوريين بموجبها التزموا بتزويد المعبد بخشب الأرز عبر ميناء يافا مقابل حصولهم على المال. كما تم استئجار عمال لأعمال نحت الحجارة وقطعها . وعندما تم الانتهاء من أعمال الإعداد هذه بدأ وضع الأساس لهيكل صغير وكان ذلك بعد مرور سنة من العودة، وجاء الشيوخ لمباركة العمل وظهر الكهنة فى ملابسهم كما كان فى السابق، وغنى اللاويون أغانى الشكر غير أن عمل البناء هذا توقف بسبب المنافقين ليهوذا وبنيامين أى الشعوب التى كانت قد أعادت استيطانها لأجزاء من يهوذا، ولم يرغبوا فى أن يتشكل مركزا جديدا ليهوذا. كما أن السامريين أيضا كانوا من بين المعارضين لهذا العمل. وذلك رغم أن السامريين كانوا قد دخلوا فى مفاوضات مع زروبابل والشيوخ للمساهمة فى البناء، لكن ليس من المعلوم هل كان هذا الاقتراح من جانب السامريين بهدف الاعتراف بمكانة أورشليم الدينية أو بهدف منفعة سياسية. ويبدو أن زروبابل قد رفض طلب السامريين بهدف النقاء العرقى؛ فتذمر السامريون وبدأوا فى مضايقة الجماعة فى أورشليم للقيام بأى عمل سواء علنا أو بالمكائد. وكان القادة الفرس أيضا من المحرضين ضد اليهود وعندما توجه هؤلاء إلى الحكومة المركزية سعى السامريون بالرشوة وطرق مختلفة لإبطال مشورة اليهود. وتوقف العمل فى بناء الهيكل، وساهم فى نجاح الخطة موت كورش وتولى قمبيز الحكم الذى لم يقدم أى دعم يذكر لليهود. غير أن هناك عامل أساسى وجوهرى فى توقف بناء الهيكل، يتمثل

هذا العامل فى الوضع الاقتصادى السيئ ليهود فلسطين، فقد كانت مدنهم وقراهم محطمة، وبالتالى كان اهتمامهم يتركز فى المقام الأول على تحسين أوضاعهم المعيشية والشخصية، وأنهم كانوا يستحقون العطف ما يمنعهم من تقديم أية دعم مادى أو معنوى لبناء الهيكل.

فى ضوء هذه الأوضاع لم يستأنف العمل فى الهيكل مرة ثانية إلا فى عصر داريوس، ويؤكد النبى حجى أن المعبد لم يكن قد تم بناؤه حتى العام الثانى من حكم داريوس ٥٢٠ ق.م ، وأن الرب غاضب بسبب عدم الإسراع فى البناء ، وأن الهيكل سيتم إعادة بناؤه على أيد واحد من نسل داود. وطبقا لرواية العهد القديم، كان هذا الشخص هو زروبابل، أى أنه سيصبح هو مسيح الرب لكن ليست لدينا معلومات خارجية تؤكد ذلك باستثناء ما أشار إليه حجى وزكريا . وبصورة عامة تم الانتهاء من بناء المعبد عام٥١٦ ق.م، وتم الاحتفال بالفصح فيه عقب ذلك. وهكذا صار الهيكل مرة أخرى المركز الحقيقى للحياة اليهودية.

لكن السؤال الذى يطرح نفسه الآنهو : هل تحقق الأمل ببناء الهيكل ؟ كان أمر بناء الهيكل دافعا قويا للتقوى بعد نهاية عصر السبى البابلى، لكن يبدو أنها كانت تقوى زائفة أو تقوى مصطنعة، فكان يأمل اليهود فى عالم أفضل طبقا لما رسمه لهم الأنبياء الذين عاصروا السبى وبعده. غير أن الأحداث التاريخية تؤكد أن أن الأمل المنشودلم يتحقق، فلم يحدث الاستقلال السياسى المنشود، فهنا بدأت ردة دينية أعنف من الردة التى حدثت زمن موسى أو زمن القضاة أو فى فترات أخرى من تاريخ اليهود السابق، فزاد الإلحاد وتفشى فى صفوفهم، وامتنعوا عن دفع العشور، وطلقوا زوجاتهم اليهوديات، وتزوجوا من زوجات أجنبيات وتعرضوا كما ذكرنا لضغوط شعوب فلسطين الأصليين.

وفى ظل هذا الوضع الدينى المتردى لليهود كان قد تولى الحكم الملك

ارتحشستا الأول ٤٦٥ـ٤٢٤ ق.م ، فسار على نهج كورش وسمح بعودة فريقين متتالين من المسبيين فريق برئاسة نحميا وآخر بقيادة عزرا. وهناك خلاف بين الباحثين حول أيهما أسبق في العودة. لكن من الأخبار الواردة في سفريهما ـ سفر عزرا وسفر نحميا ـ فإن نحميا قام بإعادة بناء أسوار المدينة رغم معارضة السكان الأصليين لها، وكان على رأس المعارضين سنبلاط حاكم السامرة وجشمو الزعيم العربي، بل إن بعض وجهاء اليهود المحليين كانوا معارضين لبناء السور. ورغم ذلك تم بناء السور، وكان من أهم أعمال نحميا بعد إتمام بناء السور أنه قام بعملية اصلاح ديني بدأت بطرد طوبيا العموني، ثم أمر برد العشور إلى اللاويين ثم أوقف التجارة يوم السبت. ومن أبرز أعمال نحميا القسم الذي وضعت فيه ثلاثة من وصايا موسى موضع التنفيذ، وهي: عدم الزواج من أجنبية، وعدم العمل يوم السبت، والابراء في السنة السابعة، وأضاف إلى ذلك تقديم تقدمة الخشب وضريبة الرؤوس لصيانة الهيكل. أما عزرا فلم يكتف فقط بتحريم الزواج من الأجنبيات بل أمر بتطليقهن وطردهن وإعلان أبناءهن بأنهن أبناء غير شرعيين . ويمكن القول بأن عنصرة الدين اليهودى هي من عمل عزرا ونحميا. وكان الهدف من عنصرة الدين إيجاد نقاوة العنصر وليس نقاء العقيدة.

وقد ساعد الحكم الفارسي بتسامحه الديني ورعايته لليهود أن مكنت العاطفة لديهم من أن تتطور فحافظوا على طقوسهم حسب النظام القديم من مراعاة للسبت والختان وتقربوا من فكرة الوحدانية، وصار لديهم أمل في بعث ونشور وثواب وعقاب أخروى فهذه الأمور الأخيرة بتأثير من الدين الفارسي.

أما فيما يتعلق بالوضع السياسي ليهود فلسطين فكانت الإمبراطورية الفارسية مقسمة إلى ولايات لتسهل إدارتها وجباية خراجها، فكان في كل ولاية نائب لملك الملوك قد يكون أحيانا أميرا خاضعا لسلطانه ولكنه في العادة "ستروب" (حاكم) يعينه الملك ويبقى في منصبه ما دام حائزا على رضا البلاط الملكي. وكان يضمن

الملك خضوع الولى لسلطانه بأن يبعث إلى كل ولاية بقائد من قواد جيشه ليشرف على ما فيها من قوى مسلحة مستقلا عن الوالى. وبهدف تأمين ضمان خضوع هذا وذاك كان الملك يعين لكل ولاية أمينا من قبله مستقلا عن الولى والقائد، وكانت مهمته تتركز فى الإبلاغ عن مسلكهما. وينطبق هذا الأسلوب أيضا على اليهود فى بابل، كما ينطبق على بقية الولايات الفارسية.

رابعا ـ الوضع السياسى والدينى ليهود مصر فى العصر الفارسى

فر بعض يهود فلسطين أثناء السبى البابلى إلى مصر حيث فتح أبريس فرعون مصر صدره لأولئك المهاجرين، وبذلك بدأت هجرة يهودية جديدة إلى مصر، ويشير سفر النبى إرميا إلى ذلك، فيقول: " الكلمة التى صارت إلى إرميا من جهة كل اليهود الساكنين فى أرض مصر، الساكنين فى المجدل وفى تحفنيس"، كما وردت الإشارة إلى وجود هجرات يهودية زمن السبى فى خطاب أرستياس إلى الملك بسماتيك الأول حيث يشير هذا الخطاب إلى وجود جند يهود فى جيش أشوربانيبال أثناء حملته على مصر، وعمل بعضهم فيما بعد جندا مرتزقة فى جيش بسماتيك الأول. ونعرف من الوثائق الآرامية التى عثر عليها فى أوائل القرن الماضى عن وجود طائفة يهودية كبيرة فى مصر عاشت فى الفنتين . وتعود هذه الوثائق الآرامية إلى القرن الخامس قبل الميلاد. وفى الوقت نفسه وصلتنا مجموعة أخرى من البرديات تم اكتشافها فى تونا الجبل تؤكد وجود جالية يهودية فى الأشمونيين. وكانت هذه الطائفة ترتبط بجالية يهود الفنتين بصلة القرابة والنسب. وإذا كانت لدينا معلومات عن يهود الفنتين خلال القرن الخامس فإنه مع تولى الأسرة الثامنة والعشرين ثم الأسرة التاسعة والعشرين وتحرر المصريين من السيادة الفارسية لم تصلنا معلومات عن يهود الفنتين بسبب اضمحلال جالية يهود الفنتين وتدرها فى عصر الأسرة التاسعة والعشرين.

بصورة عامة يعود وجود اليهود فى مصر إلى نهاية العصر الأشورى، وتزايد أثناء العصرين البابلى والفارسى، وذلك لأسباب مختلفة. وقد استقرت الجاليات اليهودية فى مصر فى أماكن مختلفة مثل منف والفيوم ودهشور وأخميم وطيبة وأدفوا والفنتين وأسوان وغيرها.

وتعد الجالية اليهودية التى استقرت فى الفنتين من أكثر الطوائف اليهودية فى مصر وصلتنا عنها معلومات مكتوبة بالآرامية على ورق البردى. وتعود أهمية هذه الوثائق إلى أنها تلقى ضوءً على حياة اليهود القانونية والاجتماعية والدينية والاقتصادية فى جزيرة الفنتين خاصة، ويهود مصر بصورة عامة. وقد اختلف الباحثون حول أصل يهود يب (الفنتين) لكن الأمر المؤكد هو أن يهود الفنتين كانوا يؤلفون جانبا مهما من الحامية العسكرية التى أقيمت فى الجزيرة.

وكما سمح الفرس ليهود بابل وفلسطين بالحرية الدينية وعدم التدخل فى الشئون الداخلية، كذلك كان الأمر بالنسبة ليهود مصر، فلم يتدخلوا فى شئون الجالية اليهودية فى الفنتين وسمحوا لأفرادها بقسط وافر من الحرية الدينية، ولم يحدث أى صدام بين اليهود والمصريين بسبب التعصب الدينى أو اختلاف العقائد بين الفريقين. فسمح ليهود الفنتين بإقامة معبد ليهوه إلى جوار معبد الإله خنوم الإله المصرى لهذه المنطقة. وأثناء ثورة المصريين ضد الفرس عندما تولى دارا الثانى العرش عام٤٢٤ ق.م لم يكن اليهود محايدين، بل بقوا على ولائهم للإدارة الفارسية، مما أدى إلى إثارة حفيظة المصريين الذين استغلوا فرصة استدعاء والى مصر الفارسى لمقابلة الملك الفارسى فى العاصمة، فتآمر كهنة آخنوم مع ويدرانج الفارسى الذى كان يشغل منصب Ptrak ، وقاموا بتدمير معبد اليهود فى الفنتين، كما عطلوا لهم بئرا وأعاقوهم عن عبادة يهوه. وبعد تدمير معبد اليهود فى الفنتين حاول يهود الفنتين إعادة بناء هذا الهيكل، وطلبوا وساطة الكاهن الأكبر فى أورشليم لدى سلطات الفرس ليأمر بإعادة تشييده ، لكن الكاهن الأكبر فى

أورشليم آثر الصمت، فأعاد يهود الفنتين الكتابة مرة ثانية إلى حاكم يهوذا وأبناء السامرة وتلقوا هذه المرة إجابة مرضية.

ذكرنا أن المصريين والفرس لم يتدخلوا فى شئون الجالية اليهودية الداخلية ويؤكد ذلك أن شخصا بعينه يدعى يدونيا بن جماريا كان ينوب عن اليهود فى المفاوضات مع السلطات الفارسية، كما كان يقوم بجمع المال اللازم لبناء المعبد فى الفنتين، أى أنه كان يشغل منصب رئيس الطائفة. وتشير الوثائق إلى وجود هيئة يهودية فى الفنتين تقوم بدور هام وقت الأزمات، فكان من أهم اختصاصات هذه الهيئة مسائل الأحوال الشخصية مثل الزواج والطلاق والميراث وكل ما يرتبط بالشريعة الموسوية.

ومن الناحية الاقتصادية تمتعت جالية يهود الفنتين بالاستقرار الاقتصادى والرخاء المادى فبعض الأسر كانت تمتلك العبيد والمنازل وغالبا ما تم البناء حول معبد الفنتين، ونشأ حى خاص باليهود أخذ يتسع تدريجيا. وقد حقق عدد من أفراد الجالية ترفا فى معيشتهم يدل على ذلك مظهرهم حيث كانوا يلبسون الملابس الصوفية ويستعملون زيت الزيتون والدهون والبسلم، وقد اشتغل اليهود أيضا بالتجارة بسبب تربة الفنتين التى تمنع أهلها من العمل بالزراعة.

أما عن علاقتهم بأورشليم المركز الروحى لليهود يمكن أن نعرفها من خلال عدم استجابة الحبر الأعظم على استعانة الجالية به للتوسط عند الفرس لإعادة بناء الهيكل بعد تدميره، وهذا يدعونا إلى القول بأن يهود أورشليم كانوا غير راضين عن وجود معبد آخر غير معبد أورشليم تقدم فيه الشعائر والطقوس الدينية وخاصة القرابين والذبائح. ومن الأسباب التى يمكن استنتاجها من عدم عدم وقوف الحبر الأعظم إلى جانب يهود الفنتين فى إعادة بناء الهيكل انتشار الوثنية بين يهود الفنتين حيث عبدوا إلى جانب يهوه الآلهة الوثنية مثل اشم بيت إيل وعنت

بيت أيل. ومن المخالفات التى انتشرت بين يهود الفنتين إهمالهم بعض أوامر الشريعة مثل ممارستهم إقراض الأموال بالفوائد، وإذا تأخر المدين عن السداد تضاف الفائدة التى لم تدفع إلى أصل، كما كانت تؤدى الفوائد أيضا إلى الدائن فى حالة إقراض الحبوب. ورغم كل ذلك فإنهم حافظوا على بعض التقاليد الدينية مثل الاحتفال بعيد الفطير وعيد الفصح وإن اتخذ العيد الأخير شكلا يغاير ما اعتاده يهود فلسطين بسبب كراهية كهنة آخنوم من عادة نحر الماعز والضأن، ومن الأمور الدينية التى حافظ عليها يهود الفنتين شريعة السبت.

ومن الوثائق التى وصلتنا عن يهود الفنتين يمكن التأكيد على أنهم لم يحافظوا على النقاء العرقى فتشير بعض البرديات إلى قيام زواج بين مصرى ويهودية، وبين يهودى وأمة مصرية، واختلطت الأسماء المصرية بالأسماء العبرية (السامية) مما يؤكد وجود قدر من اندماج اليهود فى المجتمع المصرى والتأثر به.

الفصل السابع

أوضاع يهود فلسطين ومصر
السياسية والدينية فى العصر اليونانى

أولا ـــ نهاية الحكم الفارسى وبداية ظهور اليونان

استمرت الإمبراطورية الفارسية منذ عصر كورش الفارسى حتى عصر داريوس الثالث آخر ملوك الإمبراطورية الفارسية. وأثناء حكم داريوس الثالث بدأ الإسكندر المقدونى فى غزو بلاد فارس. ففى عام ٣٣٤ ق.م عبر الإسكندر بوغاز الدردنيل ودخل آسيا الصغرى، وحدثت المعركة الأولى على شاطئ نهر كرانيك الذى يصب فى بحر مرمرة. وفى هذه المعركة عبر الإسكندر بجنوده نهر كرانيك، وقد هاجم الإسكندر بنفسه فى هذه المعركة قلب الجيش الإيرانى، وألقى جنوده بأنفسهم دون خوف أو فزع أو هلع داخل صفوف الجيش الفارسى. وأصيب الجيش الايرانى بالهلع والخوف من جراء ذلك، ولم يستطع الثبات فآثر الفرار، وانتهت المعركة بهزيمة الفرس وأسر ألفين من المرتزقة، وأعلن الإسكندر بعد هذه المعركة أن جميع المدن اليونانية الخاضعة لإيران قد تخلصت من التبعية الإيرانية وأصبحت حرة باستثناء مدينتى ميليتوس وهاليكارنوسوس التى قاومتا مقاومة شديدة. ولكن وصول الأسطول المقدونى ودخوله المعركة أسقط هاتين المدنتين وطرد الأسطول الفارسى من مياههما وأجبرتا على الدخول فى الحلف الأغريقى المقدونى بالقوة. بدأ الإسكندر ينظر فيما بعد فى أمور المدن اليونانية فتقدم صوب أنكورا (أنقرة)، ومنها جنوبا إلى كابادوكيا وكيليكيا حيث وضع يده على بوابات كيليكيا واستولى بعد ذلك على ميناء طرسوس.

ومن طرسوس سار الإسكندر جنوبا فى اتجاه سهل أسوس المؤدى إلى سوريا، وآنذاك كان داريوس موجودا فى مدينة سوخى فى سوريا فاتجه إليه الإسكندر، ولكن داريوس كان قد سبق الإسكندر بالهجوم على أسوس، وطوق داريوس ظهر جيش الإسكندر والتحم الجيشان فى اكتوبر من عام ٣٣٣ ق.م، وهاجم الإسكندر ميسرة الجيش الفارسى دون خوف أو تردد. لم يصمد الفرس طويلا أما الإسكندر، بل انسحب داريوس وتبعته قواته وسقطت سوريا بكاملها فى أيد الإسكندر الذى استولى على عربة داريوس وخيمته وقوسه. ولما علم الإسكندر أن أسرة داريوس موجودة فى الخيمة أبدى نحوها عطفا ورعاية فعوملت نساء الملك معاملة مهذبة نبيلة، وتخليدا لذكرى الانتصار أسست مدينة الإسكندرونة التى لا تزال تحمل اسمه حتى اليوم. وكان لهذا الانتصار صدى كبيرا للاسم اليونانى وملأت قلوب الفرس بالشكوك إن لم يكن بالخوف.

وبعد معركة أسوس اندفع الإسكندر باتجاه الجنوب ليؤمن السيطرة على البحر وكل خطوط المواصلات وراءه فاستسلمت ماراثوس وأرواد وجبيل وصيدا، أما مدينة صور فقد قاومت بعناد وشراسة لمدة سبعة أشهر، وكاد الإسكندر أن ييئس من الاستيلاء عليها، لكنه تمكن فى النهاية من تدمير أسطولها وهدم جزءا من صور المدينة. وأثناء محاصرة الإسكندر لمدينة صور وردته رسالة من داريوس يقترح فيها اقتسام المملكة بحيث يكون نصيب الإسكندر جميع البلاد الواقعة غربى الفرات وزواجه من ابنة داريوس، فرفض الإسكندر هذه المقترحات وواصل فتوحاته ففى خريف عام ٣٣٢ ق.م سقطت غزة آخر قلعة فى الطريق إلى مصر بعد مقاومة عنيفة.

بعد ذلك توجه الإسكندر إلى مصر فلم يجد عند حدودها مقاومة مضادة لأن ستراب مصر الفارسى ــ مازاكيس ــ آثر أن يستسلم ويوفر على نفسه عار الهزيمة فسلم القلعة بذهبها إلى الإسكندر المقدونى وأصبحت مصر خاضعة منذ

ذلك الحين للاسكندر.

وفى عام ٣٣١ ق.م عاد الإسكندر من مصر إلى سوريا قاصدا نهر الفرات وعبره لكى يدخل منطقة الرافدين، وبعد أن اجتاز بلاد الرافدين باتجاه شمالى شرقى خاض نهر دجلة شمالى موقع نينوى، وهزم على السهل بين ذلك الموقع واربيلا فى الشرق آخر جيش حشده ملك من سلالة الأخمينيين وهرب داريوس الثالث بنفسه مما أدى إلى اضطراب صفوف الفرس فارتدوا خاسرين أما الإسكندر فواصل سيره مقتفيا أثرهم إلى أن وصل إلى اربيلا . وبعد ذلك تقدم الإسكندر ناحية بابل فلم يجد مقاومة من حاكمها مازايوس ستراب فارس، بل رحب كهنتها الوطنيون وموظفوها الفرس بالقادم الجديد بالأكاليل والزهور والهدايا ولذلك أبقى الإسكندر على الحاكم الفارسى مكانه وال على بابل. كان مازايوس أول فارسى يعين واليا من قبل الإسكندر، ولم يخول له أى سلطة عسكرية حيث كانت سياسة الإسكندر اقصاء الفرس عن السلطة العسكرية والمالية كذلك، ولكنه لم يمانع فى توليهم السلطة الاسمية والفارسية. ثم توجه الإسكندر بعد ذلك باتجاه سوزا (سوسا)المقر الصيفى للاباطرة الفرس واستولى على قلعتها، ومنها استؤنف السير شتاءً عبر جبال عالية وعرة إلى برسبوليس (بالفارسية استلشر) وكانت أغنى مدينة تحت الشمس وأقدم مدينة على وجه الأرض. استولى الإسكندر على قصور هذه المدينة، ونهبت كنوزها وأشعلت النيران بالقصر الملكى الذى شيده داريوس. وهكذا انتقم الإسكندر لتدمير المعابد اليونانية فى أثينا من قبل أحشريوش. وأثناء ذلك فر داريوس إلى اكباتا عاصمة ميديا وعند وصول الإسكندر إليها فر داريوس إلى باكتريا، واستولى الإسكندر على المدينة والأقليم. وبينما كان يتقدم الإسكندر مصمما على مطاردة داريوس والقبض عليه اغتال متآمران داريوس فى معسكره، وتفحص الإسكندر جثمان داريوس وسمح للاسكندر الحصول على الجثة فأرسلها إلى برسبوليس ليدفن فى مقابر أسلافه من ملوك الفرس وذلك فى احتفال ملكى

مهيب. وقد وفر العثور على جثة داريوس حرجا كبيرا للاسكندر لأنه لو قتل بيد الإسكندر لكان قد ترك هذا العمل فى نفوس الفرس ذكرى محزنة وحقدا دفينا تجاه الإسكندر. وبدفن داريوس اعتبر الإسكندر نفسه الوارث الشرعى لآخر ملوك الفرس. ثم توجه بعد ذلك شرقا تجاه الشرق الأقصى لكن بدأ التذمر بين جنوده أبان حملته إلى الهند، وتمرد البعض وكان ذلك عام ٣٢٦ ق.م فعاد الإسكندر إلى بابل، وتوفى بالحمى فى قصر نبوخذ نصر فى حزيران من عام ٣٢٣ ق.م تاركا وراءه سجلا فريدا من الإقدام والجلد والحيوية المتدفقة والخيال الخصب. ويشير إليه دانيال بوضوح (٨: ١٥، ٢١) ويبدو أنه ذو القرنين فى القرآن الكريم .

تمزقت الامبراطورية التى كونها الإسكندر بسرعة وتسابق قواده للفوز بأحسن أقسامها فاستولى بطليموس على مصر مؤسسا أسرة البطالمة فى مصر، وسلوقس فى مرزبانة بابل مؤسسا الحكم السلوقى فى سوريا، وانتيغونس فى آسيا الصغرى وانيتباتر فى مقدونيا. وكان بطليموس أكثر هؤلاء الأربعة ذكاءً إلا أن سلوقس كان بالتأكيد أقدرهم .

ثانيا ــ أوضاع يهود فلسطين فى العصر اليونانى

عندما استولى الإسكندر على فلسطين وبقية أجزاء الإمبراطورية الفارسية عامل اليهود معاملة حسنة، ولم تكن هذه المعاملة خاصة لهذه الطائفة دون بقية الأمم والشعوب حيث لوحظ حسن معاملة الإسكندر لجميع البلاد التى استولى عليها، بل احترامه لآلهة هذه الأقطار. وقد كانت هذه هى السياسة التى انتهجها خلفاء الإسكندر بعد وفاته سواء السلوقيين فى سوريا، أو البطالمة فى مصر. وبما أن وضع فلسطين فى العصر اليونانى خلال الفترة (٣٣٣ــ ٦٢) قبل الميلاد كان متأرجحا بين البطالمة فى مصر وبين السلوقيين فى سوريا. فقد حاول يهود فلسطين

الاستفادة من هذا الوضع السياسي ومن نمط السياسة اليونانى؛ فسياسة البطالمة كانت تتبع سياسة الإبقاء على الأوضاع كما هى عليه، ولما كان اليهود فى فلسطين قد حصلوا على الحرية الدينية فى العصر الفارسى فقد حاول البطالمة الإبقاء على هذه الأوضاع بهدف تهدئة الأمور فى فلسطين. وخلال هذه الفترة التاريخية عمت الفوضى بين يهود فلسطين بسبب الصراع بين اليهود المتأغريق ، أى الراغبين فى الأخذ بالثقافة والفكر اليونانى، وبين اليهود الرافضين للأغرقة، أى الذين رفضوا الاندماج فلا الثاقافة اليونانية. وقد مثل الفريق الأول أى فريق الأغرقة أثرياء اليهود، بينما رفضت الطبقة الوسطى والدنيا فكرة الأغرقة؛ مما أدى إلى نشوب نزاع بين الفريقين. وبسبب هذه الفوضى قام بطليموس الأول بحملة على أورشليم فى أحد أيام السبت حيث يرفض فيه اليهود ــ طبقا لعقيدهم ــ الحرب ونهب خزائن المعبد وتشتت اليهود وتفرقوا .

استمرت فلسطين خاضعة لحكم البطالمة حتى عام ٢٠٠ قبل الميلاد. وكانت سياسة البطالمة عدم التدخل فى الشئون الدينية للشعوب الخاضعة لهم، وهى السياسة ذاتها التى اتبعها الفرس ومن بعدهم الإسكندر. واستمر الوضع كذلك حتى تولى العرش بطليموس الرابع الذى حاول الجمع بين يهوه وسرابيس فى شكل الرب الإغريقى ديونتيسوس. لم يمانع اليهود المتأغرقين أى المتحررين هذه الفكرة؛ وبالتالى لم نسمع عن أى قلاقل بين اليهود سوى الصراع على تولى منصب الحبر الأعظم فى فلسطين. وتلقى اليهود المتأغريق دعما من البطالمة تأييدهم للأغرقة،غير أن ذلك الوضع تغير قبل فقدان فلسطين فتمرد هذا الحزب على حكم البطالمة بسبب سوء الأحوال الاقتصادية وكثرة الضرائب المفروضة عليهم فتعاونوا مع أنطيوخوس الثالث لطرد البطالمة من سوريا وفلسطين والاستيلاء عليها. حدث التمرد فى عصر بطليموس الخامس بعد معركة بانياس بالقرب من الأردن ، وقام أنطيوخوس الثالث بتطبيق سياسة الأغرقة بالقوة على اليهود الرافضين لها، وهدف

من ذلك دمجهم مع باقى شعوب إمبراطوريته. ولكى يكسب أنطيوخوس الثالث اخلاص يهود فلسطين له منحهم حق التحرر من الضرائب خاصة رجال المعبد والكهنة والسنهدرين كما اهتم بالمعبد وتقديم الهبات له، وأعاد إعمار المدينة بعد أن هجرها أهلها ومنح الفارين حق العودة. لم يقتصر هذا الموقف على يهود فلسطين بل شمل جميع يهود مملكته، ومنح بعضهم مستوطنات عسكرية مما أدى إلى تجند بعضهم بالجيش السلوقى.

وقد اتبع البطالمة والسلوقيون سياسة واحدة فيما يتعلق بوضع يهود فلسطين فترك البطالمة والسلوقيون إدارة شئون اليهود لمجلس السنهدرين برئاسة الكاهن الأكبر. فكان طوبيا العمونى أثناء خضوع فلسطين للبطالمة، وعندما خضعت فلسطين للسلوقيين تولى إدارة شئون اليهود الكاهن الأعظم شمعون الأول ابن أونياس الثانى الذى ينتمى إلى الصدوقيين. وردا على تعاون اليهود الأرستقراطيين مع السلوقيين بدأ اليهود المتمسكون بالشريعة التعاون مع البطالمة ويتجهون إلى مصر.

عندما تولى الحكم الملك السلوقى أنطيوخس الرابع قام بتدمير المعبد ونهب خزائنه وكان ذلك بمساعدة اليهود المتأغرقين، وقام كذلك بإعادة تسمية أورشاليم إلى اسم أنطاكية، وأعاد تسمية هيكل سليمان إلى معبد زيزس الأولمبى. وخلال هذه الفترة انقسم اليهود إلى مؤيد للأغرقة ومعارض لها، وعرف المتأغرقون باسم الصديقيون، أما معارضى الأغرقة فعرفوا باسم الحسيديم أى الذين حافظوا على المرويات اليهودية وكان هؤلاء متحدون فى معارضتهم الأكيدة للأغرقة. ومن السمات التى تميز بها المتأغرقون: استخدام اللغة اليونانية بدلا من اللغة الآرامية وتبنى الأسماء اليونانية، وحمل بعضهم اسما مزدوجا، كما ظهرت مبانيهم على الطرز المعمارية اليونانية، وأصبح اللباس اليونانى شائعا بين الشبان، وبدأ الجمنازيوم اليونانى بالظهور. وقد اعتمد انطيوخوس الرابع على تعاونهم فشجع

اعتبار يهوه مساويا لزفس وأقام مذبحا فى المعبد للإله اليونانى.

عندما احتدم الصراع بين المتأغريقين والمتشددين سعى السلوقيون إلى البحث عن من يواليهم ويمثلهم؛ فبدأت عمليات موسعة لاستبدال الكاهن الأكبر بغيره، وكان الشرط الوحيد لهذه العملية هو مولاة السلطات اليونانية وساعد ذلك تدخل السلوقيين فى شئون يهود فلسطين فقام الملك السلوقى بطرد الكاهن الأكبر وعين بدلا منه أخاه ياسون ذا الميول اليونانية، وساعد على نشر الأغرقة وأكد للملك زيادة حجم الضرائب المفروضة على اليهود. غير أن الملك السلوقى كان يشك فى ولاء ياسون فبحث عن كاهن آخر أكثر ولاءً له، ووجد ذلك فى شخصية مينيلاوس. أدى هذا العمل إلى حدوث تمرد بقيادة ياسون بهدف إبعاد مينيلاوس عن منصب الكهانة؛ فقام أنطيوخوس الرابع بقمع هذا التمرد ووقع العديد من العقوبات الاقتصادية والدينية على اليهود منها على سبيل المثال: إيقاف العمل بالتعاليم والشرائع اليهودية كتدنيس يوم السبت وتحريم الختان، فساعد ذلك على حدة الانقسام بين اليهود، ونشبت الثورة اليهودية عام ١٦٨ ق.م بزعامة يهودا ابن الكاهن ماتياس من الأسرة الحشمونية، واتخذ فيما بعد لقب المكابى.وهنا تبدأ فترة جديدة فى تاريخ اليهود ، تعرف باسم عصر المكابيين.

ثالثا ــ عصر المكابيين

أدت القرارت التى اتخذها أنطيوخوس الرابع ضد اليهود والمتمثلة فى تدنيس يوم السبت وتحريم الختان وتقديم القرابين والأضاحى للآلهة اليونانية إلى زيادة حدة الانقسام بين اليهود المتأغرقين واليهود المتمسكين بالشريعة اليهودية التقليدية. فاستمر اليهود المتأغرقين فى تجاوبهم مع المؤثرات الخارجية، كما اعتمد أنطيوخوس الرابع على تعاونهم، حيث قاموا بإجبار اليهود على تنفيذ القرارات التى اتخذها أنطيوخوس الرابع مثل: تشجيع اعتبار يهوه مساويا لزفس الذى اعتبره اليهود

المتأغرقين بأن زفس (زيوس) ما هو إلا الاسم الأغريقى ليهوه وكلها أسماء لرب واحد، أما اليهود المتمسكون بأصول الشريعة فكان لهم موقف مخالف فاتحدوا فى معارضتهم ليس فقط تجاه قرارات أنطيوخوس الرابع سواء فيما يتعلق بتدنيس يوم السبت أو تحريم الختان أو جعل يهوه مساويا لزفس، بل أيضا ضد الطبقة الارستقراطية. وهنا بدأ تمرد هؤلاء اليهود بقيادة متى (متياس) من الأسرة الحشمونية، وكان ذلك حوالى ١٦٨أو ١٦٧ قبل الميلاد، وتوفى متى (متياس) الكاهن بعد عام من اندلاع هذا التمرد وتولى قيادته بعد ذلك ابنه يهوذا، واتخذ فيما بعد اللقب مكابى.

يبدو من سير الأحداث أن الثورة لم تكن موجهة فى المقام الأول ضد السيادة السلوقية، بل كانت موجهة بالدرجة الأولى تجاه الطبقة الإرستقراطية من اليهود، ويعود ذلك لسببين ، أولهما ـ سبب دينى، ويتمثل فى رفض اليهود القوميين قرارات أنطيوخوس الرابع التى كان يروج لها أنصار الأغرقة، والثانى ـ سبب اقتصادى، ويتمثل فى الثراء الاقتصادى الذى وصلت إليه الطبقة الإرستقراطية، والمظاهر الاجتماعية التى رافقت ذلك من حيث محاكاة اليونان. ومما لاشك فيه أن السلوقيين كانوا داعمين لليهود المتأغرقين فتحولت الثورة ضدهم. وساعد التمرد المكابى واستمراره عدة عوامل منها، الدعم الذى قدمته الإمبراطورية الرومانية لليهود بهدف إضعاف السلوقيين، واعتماد يهوذا المكابى أسلوب حرب العصابات وانضمام الحاسيديم إلى جانبه، غير أن اعتقاد هؤلاء (الحاسيديم) بعدم الحرب يوم السبت أدى إلى أبادهم بسهولة. وتعتبر هذه الحادثة من أقدم حوادث الاستشهاد الدينى فى التاريخ المدون.

استمر التمرد المكابى ضد السلوقيين، وحاول السلوقيون قمع هذا التمرد غير أن يهوذا المكابى استطاع الاستيلاء على أورشليم بعد معركتين هزم فيهما السلوقيين، المعركة الأولى كانت عند بيت حورون، والمعركة الثانية حدثت عند

عماوس. وبعد الاستيلاء علـى أورشـليم تم تطهـير الهيكـل وتكريسـه، وأعيـدت الذبائح اليومية. ولتخليد ذكرى هذه الحادثة أقيم عيد الحانوكـا أى عيـد التكـريس، ويحتفل به سنويا منذ ذلك الحين وتضاء فيه الأنوار فى شمعدان.

وفى عام ١٦٠ قبل الميلاد وجه الملك السلوقى ديمتريـوس اهتمامـه تجـاه التمـرد المكابى ونجحت قواته فى معركة عند ألعساة من هزيمـة قـوات المكـابى وقتلـه. وبعـد قتل يهود المكابى تولى أخوه يوناثان، فى الوقت نفسه كـان المتـأغرقون قـد اسـتعادوا السيطرة على أورشليم، وبدأوا الانتقام من أنصار التمرد المكابى .

خاض يوناثان عدة معارك من أجل استعادة السيطرة على أورشـليم وقـد حـاول الاستفادة من النزاع بين ألكسندر بالاس وبين ديمتريوس ،فنقـل يوناثـان مقـر قيادتـه إلى أورشليم وأصبح رئيسا للكهنة عام ١٥٢ ق.م ، وحاكمـا لربـع اليهوديـة عـام ١٥٠ ق.م.

وبعد يوناثان تولى شمعون الحكم الذى اسـتطاع أن يوسـع يهوديـة ويضـم إليهـا ميناء يافا رغما عن سكانها الفلسطينيين ، ونتيجة الانتصـارات الـتى حققهـا انتخـب السنهدرين عام ١٤٠ قبل الميلاد شمعون كاهنا أعظم وحاكمـا .ومكافـأة للخـدمات التى قدمها للملك السلوقى ديمتريوس نيكاتور الثانى حصل اليهـود علـى الاسـتقلال تحت حكم شمعون. وأخذ شمعون فى ضرب النقود وبـدأت أورشـليم عصـرا جديـدا، وأرخت الوثائق من ذلك الحين فصاعدا كمـا يلـى :" فى السـنة الأولى مـن حكـم شمعون الكاهن الأعظم والحاكم".

وفى عام ١٣٥ ق.م تم اغتيال شمعون بتحريض مـن الملـك السـلوقى انطيوخـوس السابع، وتولى الحكم يوحنا هيركانوس الأول (١٣٥ـــ ١٠٥ قبـل الميلاد) الـذى قرر قتل بطليموس بن حبوب زوج أخته، لأن بطليموس بـن حبـوب اغتـال شمعـون والد يوحنا هيركانوس الأول. قام شمعون بـبعض التوسـعات ففـرض سـيطرته علـى

ميدبا عبر الأردن الشرقى، ثم قام باجتياح السامرة مبديا الكراهية ضدهم؛ فهدم مدينتهم مع معبدهم. وكان قبل ذلك قد وجه حملة تجاه أدوم وأجبرهم على اعتناق اليهودية والاختتان.

وبعد موت يوحنا هيركانوس الأول تولى أرستوبولس الحكم (١٠٥ــ ١٠٣ق.م). فتح أرستوبولس الجليل وأجبر العرب الايتوريين الذين كانوا يسكنون الجليل على التهود بالقوة وختان الذكور. وأطلق على نفسه لقب ملك اليهود، أو على حد تعبير يوسيفوس وضع تاجا على رأسه. ومن بعده تولى أكبر أبناءه الإسكندر يانايوس (١٠٣ ــ ٧٦قبل الميلاد) الذى عبر نهر الأردن ودمر مدنا كثيرة فى الشمال الشرقى من فلسطين، وفرض على أهلها التهود بالقوة، ووصلت رقعة البلاد إلىذروة توسعاتها فى عصره. استغل الإسكندر يانايوس الضعف السلوقى وعدم قدرتهم السيطرة على الطرق التجارية النبطية، فخاض حربا ضد الأنباط بهدف السيطرة على الطرق التجارية لكنه هزم هزيمة قاسية، كما دخل أيضا فى صراع مع البارثيين الفرس الذين حاولوا التحرر من السيادة السلوقية.

أدت هذه الحروب إلى تدهور الأوضاع الداخلية وضعفت سلطة السنهدرين فى عصر الإسكندر يانايوس، وتمرد الفريسيون عليه وأصدروا عملة باسم السنهدرين. وبوفاة الإسكندر يانايوس تولت أرملته سالومى الحكم (٧٦ــ ٦٧قبل الميلاد)، وتصالحت مع الفريسيين وأطلقت أيديهم فى الشئون الداخلية فسيطروا على مجلسها وعلى مجلس السنهدرين. وعينت ابنها هيركانوس الثانى كاهنا أكبر وأرسطوبولس الثانى قائدا عسكريا وسياسيا.

بعد موت سالومى دخل ابناها فى صراع، فتحالف أرسطوبولس الثانى مع الحزب اليهودى المتشدد أى مع الفريسيين واستولى على أورشليم ووظيفة الكاهن

الأكبر التى كان يشغلها أخوه هيركانوس الثانى الذى طلب النجدة من الحارث الثالث ملك الأنباط. لم تمهل الظروف هيركانوس الثانى فرصة الولاية فالعداء للأسرة المكابية عاد مرة أخرى من جانب اليهود أنفسهم فى شكل ثورة الفريسيين أعداء الحكام. وفى الوقت نفسه بدأ يتزايد الوجود الرومانى فى المنطقة، فدعا الفريسيون القائد الرومانى الذى كان يحارب فى الشرق لمساندقم ضد أرسطوبولس الثانى وأنصاره العسكريين. استولى بومبى القائد الرومانى بالفعل على سوريا وفلسطين عام ٦٣ قبل الميلاد وانتهى الحكم اليونانى (السلوقى) لبلاد الشرق لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل التاريخ فى سوريا هى مرحلة العصر الرومانى.

يبدو من هذا العرض لوضع اليهود زمن حكم الحشمونيين أن التمرد الذى قاموا به لم يحقق الغرض منه، فبعد موت يوحنا هيركانوس الأول وتولى ابنه أرسطوبولس الحكم بدأ تغلغل الثقافة الهللينية فى الأسرة الحشمونية(المكابية). يتضح تغلغل الثقافة الهللينية فى الأسرة المكابية زمن أرسطوبولس؛ فقد لُقب بـ: عاشق اليونان أو محب اليونان حيث أطلق على نفسه فيلو هيلين، واتخذ لنفسه لقب ملك أو على حد تعبير يوسيفوس وضع تاجا على رأسه، أى أنه صار مصدر القانون أو منبع القانون، واتخذ أرسطوبولس مع سائر الملوك المتأخرين أسماء يونانية بجانب الأسماء العبرانية، وتم استعمال الكلمات اليونانية على النقود إلى جانب العبرية. كما شيد الحشمونيون لأنفسهم قصورا فاخرة على الطراز اليونانى وجندوا المرتزقة فى جيوشهم كما فعل يوحنان هيركانوس وقاموا بسك العملات .

رابعا ــ يهود مصر فى العصر اليونانى

كانت مصر دائما وأبدا ملاذا لليهود منذ أقدم العصور وحتى العصر الحديث. وقد انتشر اليهود فى أرجاء شتى من مصر وقامت لهم بها جاليات منظمة . فكانت

هناك الجالية اليهودية فى جزيرة يب والتى يعود تاريخها إلى العصر الفارسى أو ما قبل هذا العصر ـ على نحو ما ذكرنا من قبل . وفى العصر اليونانى كانت توجد جاليات يهودية كثيرة فى مصر من أبرزها جالية يهود الإسكندرية. ويوجد خلاف كبير حول متى جاء اليهود إلى الإسكندرية واستوطنوا فيها، فالرواية اليهودية التى ذكرها يوسيفوس تشير إلى أنهم جاؤوا مع الإسكندر الأكبر، وأن الإسكندر خصص لهم حيا فى الإسكندرية. غير أن سير الأحداث يشير إلى أن الإسكندرية لم يكن قد اكتمل تشييدها بعد أن غادر الإسكندر مصر، بل تم بناؤها فى عهد خلفائه، وبالتالى لا يمكن أن يكون الإسكندر قد خصص لهم حيا فى مدينة لم يكتمل بناؤها بعد.

يبدو أن الهدف من ذكر ذلك هو ادعاء أن اليهود كانوا موضع عطف وإحسان من الإسكندر، ليتخذوا من ذلك دعامة قوية يرتكز عليها ما ادعوه لأنفسهم من حقوق وامتيازات كان مصدرها الإسكندر.

يشير سير الأحداث أن علاقة اليهود باليونان بدأت مع حكم البطالمة منذ أن غزا بطليموس سوريا ثم الاستيلاء على أورشليم عام ٣١٩ ـ ٣١٨ ق.م ، ثم استقر له الأمر منذ عام ٣٠١ ق.م، وحمل معه أسرى حرب كان من بينهم يهود، وإلى جانب هؤلاء الأسرى الذين جلبهم بطليموس جاء بعض اليهود بمحض إرادتهم. عندما أدرك بطليموس صلاحية استخدام اليهود فى جيشه نقل أفواجا منهم ومنحهم اقطاعات ليستقروا فيها؛ فيهود الإسكندرية خليط من الأسرى ومن الأحرار الذين جاءوا من تلقاء أنفسهم. وقد اتبع البطالمة سياسة واحدة تجاه يهود فلسطين ويهود مصر، تتمثل هذه السياسة فى أن البطالمة تفادوا التدخل فى شئون اليهود الداخلية وتركوا لهم قدرا كبيرا من الحكم الذاتى، وهى السياسة نفسها التى اتبعها الفرس من قبل.

تميزت أوضاع اليهود خلال هذه الفترة بالهدوء والسلام وعملوا على كسب ثقة البطالمة، ونشط اليهود فى إقامة البيع وتشكيل الجاليات. وكان من أهم الجاليات اليهودية فى مصر جالية يهود الإسكندرية الذين ينسب إليهم ترجمة العهد القديم إلى اللغة اليونانية، وصارت هى لغة التعامل بين يهود مصر وحلت محل اللغة الآرامية. وتشهد برديات زينون على وجود جالية يهودية فى الفيوم، وتشير هذه البرديات على انخراط اليهود فى العمل الزراعى، وعملهم رعاة، كما تشهد برديات ديوسيوليس (إدفوا) على وجود جالية يهودية فيها.واندمج اليهود بصورة كبيرة فى المجتمع المصرى فحمل أكثرهم أسماءً مصرية للتأكيد على اندماجهم واختلاطهم بالمصريين.

وفُتح أمام اليهود فى مصر فى العصر البطلمى العمل فى الوظائف الحكومية والجيش ومختلف المهن والحرف. ولم يقتصر اليهود على محاولة الاندماج فى المجتمع المصرى، بل حاولوا مسايرة عملية التأغرق؛ فاتخذوا لأنفسهم أسماء يونانية وعمل بعضهم فى الجيش وعمل آخرون فى الشرطة، وصار دوسيثيوس بن دريمولوس من حاشية بطليموس فيلوماتور.

وخلال الفترة التاريخية من بداية الحكم البطلمى وحتى نهاية عصر بطليموس الخامس أبيفانيس (٢٨٦ ــ ١٨٠) قبل الميلاد، أى خلال قرن من الزمان لم نسمع عن اضطهاد تجاه يهود مصر باستثناء ما نسبه كاتب سفر المكابيين الثالث عن اضطهاد بطليموس الرابع فيلوباتور ضد اليهود، ومحاولة فرضه عبادة الإله ديونيسوس على يهود مصر، وقضى على من يرفض تقديم القرابين إليه أن يدفع ضريبة الرأس مثل المصريين.

وعندما استولى السلوقيون على يهوذا واندلعت ثورة المكابيين هاجر الكثير من اليهود إلى مصر خاصة أولئك المعارضين لحكمه، كما هاجر أونياس الرابع بعد

حصول ياسون على منصب الحبر الأعظم بمساعدة السلوقيين. فصارت مصر ملاذا لأونياس الرابع، ومنحه بطليموس السادس قطعة من الأرض على فرع النيل الشرقى وسمح له بإقامة معبد لليهود فى ليونتوبوليس فى أقليم هليوبيلس على نمط هيكل أورشليم. وكان الهدف من ذلك إغراء بقية يهود مصر بتأييد الملك، وشن حملة دعاية مضادة على الحكم السليوقى فى فلسطين. كما فر إلى مصر أيضا الكثيرون من معارضى حكم المكابيين .

تميز يهود الإسكندرية فى العصر اليونانى عن بقية الجاليات اليهودية فى مصر، يتضح هذا التميز فى عدة أوجه منها أن يهود الإسكندرية كان لهم نصيب أوفر فى أوجه النشاط المختلفة فاشتغل بعضهم بالتجارة، وكان بعضهم على قدر كبير من الثراء والنفوذ، وقد كانوا مرابين ويجنون أرباحا طائلة من وراء استثمار أموالهم بإقراضها بفوائد باهظة، كما يشير التلمود إلى وجود نقابات مهنية خاصة بالصناع اليهود.

الفهرست

الفصل الأول ــ غرض الرواية التاريخية فى العهد القديم وفلسفتها

أولا : مناهج كتابة التاريخ	١
ثانيا: مراحل التاريخ اليهودى	٤
ثالثا: مصادر دراسة التاريخ اليهودى القديم	٦
رابعا: اتجاهات كتابة تاريخ إسرائيل القديم لدى المؤرخين اليهود	٩
خامسا غرض الرواية التاريخية فى العهد القديم	١٢
سادسا : فلسفة التاريخ الإسرائيلى فى العهد القديم	١٤
سابعا : التفسير النبوى للتاريخ الإسرائيلى	٢١

الفصل الثانى ــ من عصر الآباء حتى نهاية عصر القضاة

أولا : عصر الآباء	٢٩
ثانيا : الوجود الإسرائيلى فى مصر	٤٠
ثالثا : خروج بنى إسرائيل من مصر	٤٣
رابعا : استيلاء بنى إسرائيل على كنعان	٤٤

الفصل الثالث ــ تاريخ بنى إسرائيل منذ نهاية عصر القضاة حتى انقسام مملكة داوود وسليمان

أولا: نهاية عصر القضاة وتأسيس الملكية على يد شاؤول	٤٩
ثانيا : نهاية عصر شاؤول وأسباب فشل الملكية فى عصره	٥٣
ثالثا : عصر داوود	٥٤
رابعا : عصر سليمان	٦٤

الفصل الرابع ــ تاريخ بنى إسرائيل من انقسام مملكة داوود وسليمان حتى نهاية مملكة إسرائيل

أولا : صراع وتنافس إسرائيل ويهوذا : الأسباب والنتائج ٧٣

ثانيا : إسرائيل ويهوذا تقارب وتعاون : الأسباب والنتائج ٧٦

ثالثا : ظهور الأشوريين وأثره على مملكتى إسرائيل ويهوذا ٨٢

الفصل الخامس ــ تاريخ يهوذا من الغزو الأشورى لمملكة إسرائيل حتى الغزو الكلدانى لمملكة يهوذا

أولا : حكام يهوذا فى أواخر العصر الأشورى ٩٠

ثانيا : ملوك يهوذا فى العصر الكلدانى ٩٥

ثالثا : نهاية الوجود السياسى ليهوذا ٩٨

الفصل السادس ــ أوضاع اليهود السياسية والدينية فى عصر السبى البابلى والعصر الفارسى

أولا : أوضاع اليهود السياسية والدينية فى عصر السبى البابلى ١٠١

ثالثا : نهاية بابل وصعود فارس ١١٠

ثالثا : الوضع السياسى والدينى ليهود بابل وفلسطين فى العصر الفارسى ١١٢

رابعا : الوضع السياسى والدينى ليهود مصر فى العصر الفارسى ١٢٠

الفصل السابع ــ أوضاع يهود فلسطين ومصر السياسية والدينية فى العصر اليونانى


أولا : نهاية الحكم الفارسى وبداية ظهور اليونان ١٢٥

ثانيا : أوضاع يهود فلسطين فى العصر اليونانى ١٢٨

ثالثا : عصر المكابيين ١٣١

رابعا : يهود مصر فى العصر اليونانى ١٣٥

رقم الإيداع : ٢٤٢٧٥ /٢٠٠٧


Bibliotheca Alexandrina
1170080